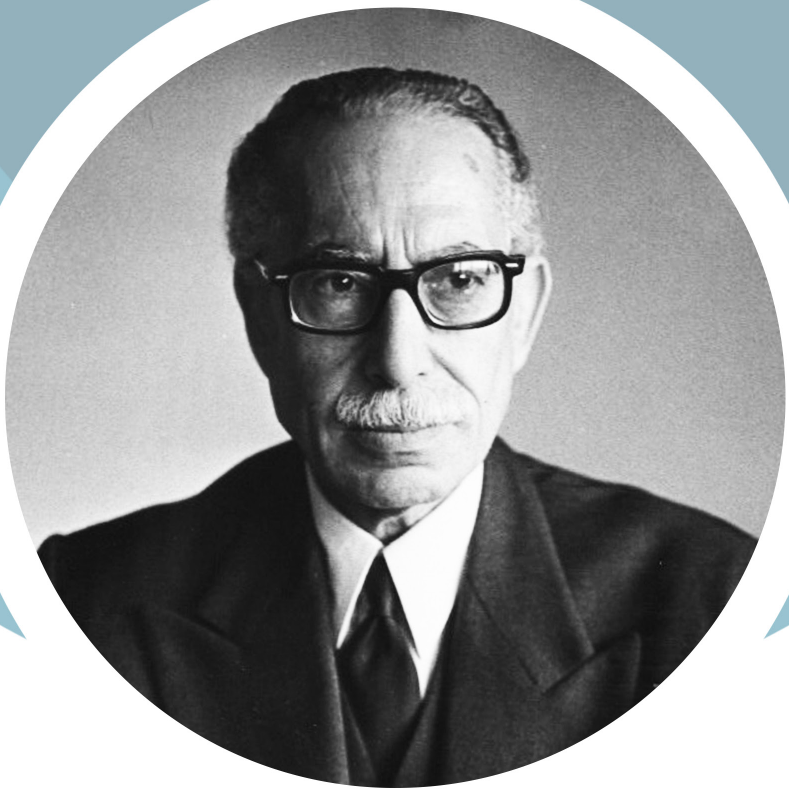

أشهب
ملك الطفيليين

توفيق الحكيم

أشعب ملك الطفيليين

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

أشعب ملك الطفيليين

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٢٨٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة	٧
أشعب وجاريته رشا	٩
أشعب والكِندي البخيل	١٣
أشعب وبنان	٢٥
أشعب في مكة	٣٥
أشعب في الحمام	٤١
أشعب والحلاق	٤٣
على الخوان	٤٥
حيلة شيطانية	٥١
في العرس	٥٥
ضيف ثقيل	٦٣
محتال ظريف	٦٩
مع الخليفة	٧٥

مقدمة

الأدب العربي القديم من أعرق الآداب وأبرعها في رسم الأشخاص وتصوير الطبائع. وما من عجب في ذلك، فهذا الأدب وليد حضارة ذكية خلاقة. إنما العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدًا عن متناول العالم الغربي الذي رشف من نبع الإغريق والرومان.

أغلب الظن أن علة ذلك ترجع إلى اختلاف النظرة إلى الجمال الفني عند العرب والغرب؛ فالعرب يرون الفن الأعلى في الإيجاز، أي التركيز، في حين أن الغرب يرى الفن الأغنى في الإطناب أي التحليل. وكان من أثر الإيجاز أن اكتفى العرب في رسم شخصية أو تصوير طبع بنادرة تُروى أو حادثة تُذكر أو بيت من الشعر يُنظم، فيجدون في ذلك متعتهم وبغيتهم. بينما الغرب لا يكتفي باللمحة الخاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة، فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة.

والنظرتان إلى الفن صحيحتان؛ فللإيجاز جماله وقوته، وهو يفترض في المتذوق له ذكاءً وفطنة وتصورًا وعلمًا، فيبصر الكثير من خلال القليل، ويلمح الصورة التامة من وراء الجزء المقتضب ... فن يبدعه منشئ بارع لقارئ بارع يتباريان في ميدانه، مُنتضِيَين أسلحة متكافئة من الذوق والفهم.

كما أن للتحليل أيضًا مزاياه؛ فهو يفترض في المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيال ... فيرى من واجبه أن يعاونه ويكون في خدمته، وأن يحتال بالإسهاب والتفصيل ليُعلم من لا يَعلم ... فيجتذب من الناس عديدًا ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته.

لو استطعنا أن نوفق بين النظريتين، ونجمع بين الفنين، لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم.

وهذا ما أخذت به نفسي حين وضعت هذا الكتاب في عام ١٩٣٨م، في ذلك الإطار الذي يُظهرنا على صورة من المجتمع العربي في ذلك العصر، نكاد نلمس لها وشائج قربى بما نراه اليوم في بعض أحياء مدننا وعادات مجتمعنا.

فالمالك والمستأجر وما بينهما من علاقة ... والمنازل ومرافقها، والسوق وحركتها، والولائم ومراسمها، والحمام وزبائنه، والحلاق وطباعه ... كل تلك الصور عن الحياة الاجتماعية، كما بدت من الأدب العربي القديم، قد راقتني فيما راقني من طبائع وأشخاص رأيت أنْ أُبرِزها إلى جانب شخصية «أشعب»، ذلك الراصد للموائد والطعوم كما يرصد الفلكي الكواكب والنجوم، وأشهد أني ما رأيت قط في أدب من الآداب صورة لطفيلي أدق من صورته، فتتبعت آثاره وتنسمت أخباره، وطفقت أجمع نوادره من كتب الأقدمين، وأمزجها وأخلطها وأطبخها، على حد تعبيري في بيان الطبعة الأولى؛ إذ قلت يومئذٍ: «ما دمنا في صدد المعدة — أعني معدة أشعب — فلأبين للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من ألوان الأدب. لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير من حوانيت أربعة مشاهير: «الجاحظ» و«ابن عبد ربه» و«الخطيب البغدادي» و«بديع الزمان». فقد بهرني حقًّا وأسال لعابي ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف. غير أني وجدت كل هذا مبعثرًا ضمن بضاعتهم، ومُلقًى على غير نظام، حتى وقع الملح على السكر. كما وجدت أكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الأربعة، كلٌّ يضعها من حانوته نفس الوضع، ويعرضها عين العرض، فملأت يدَيَّ مما تخيرت من أطايبها وذهبت به إلى «مطبخِ» فني، حيث مزجته وخلطته وجعلت منه «عجينة» واحدة، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول.»

توفيق الحكيم

أشعب وجاريته رشا

انتصف النهار، وصاح مؤذن الظهر، لا من مسجد ذلك الحي من أحياء «المدينة»، لكن من بطن «أشعب»؛ أشهر الطفيليين في عصره، وأظرفهم حديثًا، وأقبحهم وجهًا، وأزراهم هيئة، وأجملهم صوتًا، وأحذقهم في فنون الغناء.

وكان جالسًا إلى معشوقته «رشا» من أول النهار، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدًا:

دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض

وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر في دارها الصغيرة، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع. فأجابته مترنمة، والسحر والفتنة يكادان ينطقان في عينيها:

وذا قليل لمن دهته بلحظها الأعين المِراض

فتنهد العاشق ورفع عقيرته:

فهل لمولاتي عطف قلب أو للذي في الحشا انقراض؟

فأجابته الجميلة في ابتسامها الفاتن، ولفظها العذب، وصوتها الرخيم:

إن كنت تبغي الوداد منا فالوُد في ديننا قِراض

فتنهد أشعب هذه المرة تنهدًا طويلًا، وأرسل بصره إلى النافذة، ورأى ميل الشمس، فتململ والتفت يَمنة ويَسرة، ثم قال للحسناء صاحبة الدار: ما لي لا أسمع للطعام ذكرًا؟!

فتغير وجه الجميلة وقالت: سبحان الله! أما تستحي يا شيخ؟ أما في وجهي من الحسن ما يشغلك عن هذا؟!

فسكت أشعب كالخجِل. ثم جعل ينظر إلى وجهها وعينيها متمسكًا بأهداب الصبر والقناعة.

فقالت له: امض في غنائك، فإنك حسن الغناء. أسمعني صوتًا لم أسمعه من قبل. ما هو أحسن الغناء عندك؟

فأجاب أشعب بغير تردد: هو نَشيش المقلي!

فقالت له في شيء من الامتعاض والتأنيب: أهذا كلام يقال في مثل هذا الموقف الذي نحن فيه؟

– صدقتِ ... لقد كان يجمل بي أن أتحدث عن الحب الذي في الحشا!

وأمسك بالعود مرة أخرى ... فأسرعت الجارية تقول: نعم، صف لي ما في الحشا من الحب.

فنظر إليها العاشق مليًّا وقال: وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح؟

– زد في الوصف.

– وصف ماذا؟

– ما في الحشا من الهوى.

– من «الهوا» ... هذا والله صحيح.

ورفع العاشق عقيرته بالغناء:

إذا كان في بطني طعام ذكرتها وإن جُعت يومًا لم تكن لي على ذكر
ويزداد حبي إن شبعت تجددًا وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة، فقامت تهيئ له الطعام. ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية ووُضِعَ أمامه الخِوان. وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحَظت عينه وسكِر وسدِر وانبهر، وتربَّد وجهه، ولم يسمع ولم يبصر. فتناول القصعة وهي كجمجمة الثور فأخذ يحضُنها، وما زال ينهشها طولًا وعرضًا ورفعًا وخفضًا، لا يفصل تمرةً قطُّ عن تمرة، ولا يرمي بنواةٍ قط، ولا ينزع قِمَعًا، ولا ينفي عنه

قشرًا، ولا يفتشه مخافة السوس والدود. فلما رأت صاحبته ما يعتريه وما يعتري الطعام منه، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها: هذا والله هو العشق!

ثم نظرت إليه، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد إليها يده: بارك الله فيكَ من «فالُوذَج» صافٍ يُقرأ نقش الدرهم من تحتك! ... بارك الله فيكِ من ثريدة ملساء كأنها خد الحبيب! ... بارك الله فيك من خبز رُقاق كأنها آذان الفيلة!

وهجم بيديه كأنه طالب ثأر، فابتدرته الجارية قائلة: أتحبني؟

فلم يُجب، ولم يلتفت إليها، ولم يَبْدُ عليه أنه سمع منها شيئًا. ومضى في التهامه ومضغه. فتوسلت إليه أن يتكلم، فصاح متبرمًا: أما سمعت قول من قال: «إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن كلمك من لا بد من جوابه فلا تجبه إلا بقول نعم، فإن الكلام يشغل عن الأكل، وقول «نعم» مَضغة.»

فضحكت القينة ثم قالت: ولكنك لم تجبني حتى بقول «نعم».

فنظر إليها وفمه ممتلئٌ نظرةَ مَن يسألها عما قالت، فقد نسي، فأجابت: سألتك «أتحبني»؟

فلم يلفظ حرفًا، وأين له الفم الذي يلفظ شيئًا؟

فسكتت الجارية لحظة، ثم رأت أن تحتال عليه وتحرجه فقالت: أتحب أبا بكر الصدِّيق؟

فبلع لقمة وشرب جُرعة من ماء، ونظر إليها نظرة المعتذر المشغول عن الجواب، غير أنها مضت في تضييق الخناق عليه: أتحب عمر بن الخطاب؟

وصادف العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة، فأجابها على عجل ويده مسرعة إلى الخوان: ما ترك الطعام في قلبي حبًّا لأحد!

قام أشعب عن الخوان الذي كان، وهو يتجشأ ويقول لصاحبته: جُعِلْت فداك ما أكرمك! إذا كان غدًا فاصنعي لي هريسة، فأنت أحذق بها.

فقالت له باسمةً: إنك لشديد النسيان. أما تذكر أنك من أيام قد تشهيت عليَّ «هريسة» فبعثت بها إليك؟

فصاح العاشق طربًا: نعم ... فإني أتشهى عليك إذن «لَوْزِينَج» رقَّ قشره واشتدَّتْ عذوبته، غريقًا في سكر ودُهنِ لوز ... يشد فؤاد الحزين ويرد نفْس الشَّحِين؛ ابعثي لي به غدًا أصلحك الله، مع شيء من النبيذ وما يصلحه.

فقالت: أنسيتَ أني بعثت إليك منذ ليالٍ هذا اللَّوزِينَج وهذا النبيذ!

فقال: إذن فإني أشتهي، حفظك الله وأبقاك، ثَريدةً دَكناء من الفُلفُل، رقطاء من الحِمَّص، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما يَضرب الوليُّ السوء في مال اليتيم.

فصمتت الجارية لحظة، ثم نظرت إلى أشعب مليًّا وقالت كالمخاطبة لنفسها، ساخرة: أبقاك الله وحفظك، رأينا الحب يكون في القلب، وحبك ليس يجاوز المعدة!

– لم أسمع منك! ماذا قلت؟

– لا شيء! أخبرني أنت ... أين دارك؟ ولماذا لم تَدْعُني يومًا إلى طعامك؟

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والذعر: داري؟ أما علمت أني أسكن عند الكندي!

– ومن الكندي؟

– هو أبخل أهل الأرض طُرًّا، وهل يستطيع ساكن أو جارٌ أن يصنع طعامًا دون أن يبعث إلى صاحب الدار بطبق. إنه لا يزال يقول للساكن وربما للجار: «إن في الدار امرأة حبلى، وإن الوحمَى ربما أُسقِطَتْ من ريح القدور الطيبة، فإذا طبختم فرُدُّوا شهوتها ولو بغَرفة أو لعقة. فإن لم تفعلوا ذلك، بعد إعلامي إياكم، فكفارتكم، إن أُسقِطَتْ، غُرة عبد أو أَمَة.» فكان بذلك ربما يوافي منزله من قِصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام. فيأكل هو وعياله ويقول لهم: «أنتم أحسن حالًا من أرباب هذه القصاع. فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان.» فهل تريدين، أصلحك الله، أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل؟

فضحكت وقالت: أفقير هو؟

– إنه أغنى أهل المدينة!

– ولكني أريد أن أموت وآكل من طعامك!

فتفكر العاشق قليلًا ثم أجاب: مهلًا سيدتي ... سأدعوك إن شاء الله إلى طعام وشراب وغناء.

– متى؟

– يوم يحين وقت ذلك.

ثم أسرع فاستوى قائمًا ومد إليها يده مودعًا، فمدت إليه يدًا صغيرة كأنها حلية من عاج، فلمح في إصبعها خاتمًا، فاستبقى يدها في يده وقال في صوت يسيل رقة ولطفًا: سيدتي جُعِلْتُ فداك! ناوليني هذا الخاتم الذي في إصبعك لأذكرك به.

فسحبت يدها في رفق وتضاحكت في خبث وقالت: إنه ذهب وأخاف أن تذهب.

ثم أسرعت فالتقطت من الأرض عودًا يابسًا سقط عن شجرة قرب النافذة وأعطته إياه قائلة: ولكن خذ هذا العود لعلك تعود!

أشعب والكِندي البخيل

جاء العصر وأشعب يتسكع في الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندي، فوقف وأرسل بصره، فوجد صاحبه جالسًا تحت شجرة على ماء جارٍ وسط خضرة، وقد بسط بين يديه منديلًا فيه لحم سِكْباج بارد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخرى فيها أربع بيضات. فاقترب منه ومر به مسلِّمًا عليه. فرد الكندي السلام قائلًا: هلم عافاك الله.

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق في صحن السماء قد انثنى راجعًا يريد أن يُعَدِّي جدول الماء. فصاح به الكندي وهو يأكل: مكانك ... فإن العجلة من عمل الشيطان.

فوقف أشعب مأخوذًا ... فسأله الكندي: تريد ماذا؟

فأجاب أشعب: أتريد أن أتغدى؟!

فحملق فيه الكندي قائلًا: ولم ذلك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟

فقال أشعب: أوَلست قد دعوتني؟!

فأجاب الكندي: ويلك! لو ظننتُ أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام. ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام، أيْ كلام بكلام؟ ... ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال، وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف.

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه. وجعل أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له: لقد رأيتك تأكل وحدك.

فبلع الكندي ريقه ثم قال: ليس عليَّ في هذا الموضع مسألة، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف. وأكلي وحدي هو الأصل. وأكلي مع غيري زيادة في الأصل. وإذا كانت الوحدة خيرًا من جليس السوء فإن جليس السوء خير من أكيل السوء. لأن كل أكيل جليس. وليس كل جليس أكيلًا!

فقال أشعب متخابثًا: إنما أردت أن أؤاكلك لأُسَخِّيَك وأنفي عنك اسم البخل.

فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه زيتونة: لا أعدمني الله هذا الاسم … فإنه لا يقال «فلان بخيل» إلا وهو ذو مال، فسلِّم إليَّ المال وادعُني بأي اسم شئت.

فقال أشعب: ولا يقال أيضًا «فلان سخي» إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم، فأنت قد اخترت أخسهما وأوضعهما.

فقال الكندي: بينهما فَرْق.

فقال أشعب: ما هو؟

فأجاب الكندي: في قولهم «بخيل» تثبيت لإقامة المال في ملكه. وفي قولهم «سخي» إخبار عن خروج المال من ملكه. فالبخل اسم فيه ذم ولكنَّ فيه حفظًا، والسخاء اسم فيه حمد ولكنَّ فيه تضييعًا. والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف! وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن وعَرِيَ الجلد وضاع العيال وشمت الحساد؟!

وظل يأكل، وأشعب ينظر إليه حانقًا في دخيلة نفسه على هذا اللؤم الذي لا تنفع فيه حيلة. غير أنه تلطف له ودنا منه قائلًا: وما عليك لو جلست إليك ساعةً أغنيك حتى تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القُطوب.

فصاح الكندي: لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك.

– وماذا يمنعك من ذلك؟

– يمنعني منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب وضحك.

فأُسقط في يد أشعب ولم يدر من أي مدخل يدخل إلى هذا الرجل، وهو كلما فتح له بابًا أغلقه. ولم يقنَط أشعب من ذلك، وخطر له خاطر أعجبه، فأسرع يقول لصاحبه: لقد ظفرت لك بساكن جديد، رضي أن ينزل دارك الخالية وقبِل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط.

فأبرقت أَسِرَّة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال: وأين هو … عافاك الله؟

– إذا رأيت أن أدعوه …

– متى؟

– الليلة إلى عشائك.

– عشائي!

وعاد إلى قُطوبه، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له: لا تتكلف شيئًا لهذا الضيف، إنه يرضى بما حضر.

فأسرع الكندي يقول: ليس يحضر شيء، وقولك «بما حضر» معناه أنه لا بد من أن يقع على شيء.

فقال أشعب: قطعة مالح.

– وقطعة مالح أليست هي شيئًا؟

– نكتفي بالشرب إذن على الريق.

– لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس.

– أنا أحضر النبيذ.

فقال الكندي على الفور: إذا صرت إلى إحضار النبيذ فأحضر أيضًا ما يصلح للنبيذ.

فقال أشعب: ليس يمنعني والله من ذلك ومن إحضار النُّقْل والريحان إلا أن أُحسَب أنا صاحب الدعوة، وليس يجوز ذلك إلا أن يكون لك فيها أثر.

ففكر الكندي لحظة، ثم صاح كمن وجد الفرج: لقد انفتح لي باب؛ لكم فيه صلاح وليس عليَّ فيه فساد.

والتفت إلى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائمة في طرف من أطراف البستان وقال: في هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مُدْرِكان، وإن نحن وجدنا إنسانًا يصعدها، ولم يطيرا، فهما قد صارا ناهِضَين، جعلنا الواحد «طَبَاهِجَة» والآخر «كردناجًا» فكان نِعم العشاء، فهل لك يا أشعب في صعود هذه النخلة؟

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب، وصاح: هذه لا تُصعَد ولا يُرتقى عليها إلا إذا كان اليوم آخر عمري، وأردتَ من ذلك دك عنقي، اللهم أغنني عنك وعن طعامك يا شيخ!

وأراد أن ينصرف يائسًا، ولكنه فكر في أمر عشائه وليس في المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل إليه، فعاد ينظر إلى النخلة، فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعبًا، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه إلا من طلب الموت، فأخبر الكندي أن يعفيه وأن يطلب في الجيران إنسانًا يصعدها، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك. ودلَّهم بعض الناس آخر الأمر على أكَّار تلك حرفته، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضًا، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة، فلما صار في أعلاها طار أحد الفرخين، فأنزل الآخر وسلمه إلى الكندي، ووقف يتصبب عرقًا في انتظار الأجر، فأخرج الكندي «فَلْسًا» وضعه في يد الأكار، فنظر فيه مليًّا

ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين، فقالوا جميعًا: فَلْسًا بعد هذا الجهد كله، وهو غني! لو كان أعطى درهمًا على الأقل، إنه ذو مال!

فالتفت إليهم الكندي صائحًا: إنني لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم!

وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى أشعب قائلًا: الآن قد ظفرنا بالعشاء، فابعث لنا في طلب صاحبك الساكن الجديد.

فنظر أشعب إليه شزرًا: فرخ يمام واحد، هو «الطباهج» و«الكردناج» وهو كل العشاء؟!

ففكر الكندي لحظة ثم قال: انتظر، لا تبرح.

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظًا، فترَضَّاه وأغراه وذهب به، وغبَّرا مليًّا، ثم عادا يحملان أرزًا بقشره، وليس معهما شيء مما خلق الله إلا ذلك الأرز. فلما صار الكندي إلى بستانه كلَّف الأكار أن يجُشه في مِجشة له، ثم ذرَّاه، ثم غربله، ثم جش الواش منه. إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله، فكلفه الكندي أن يطحنه على ثَوره وفي رحاه، حتى فرغ من طحنه، فكلفه أن يغلي له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه به أكثر نُزْلًا، ثم كلف الأكار أن يخبزه. ثم طلب إلى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له في الجدول الشُّصوص وأن يسكِّروا الدرياجة على صغار السمك لا تدخل السواقي، وأن يدخلوا أيديهم في جحرة الشلابي، حتى يصيبوا من السمك شيئًا يُجعل كبابًا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير.

ما زال أشعب منذ ذلك العصر إلى الليل في كد وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل، وجاء الخبر من بيت الكندي أن اليمامة التي كان قد بعث بها لتُطبخ «طَباهِجًا» قد نضجت، فصاح الكندي صيحة الظافر:

يا أشعب! هلموا إلى عشائي، وهنيئًا مريئًا لكم طعامي. فأحضر صاحبك إلى داري تجدوا الخوان قد نُصِبَ كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل!

جرى أشعب إلى صديق له من طرازه يُدعى «بنان»، فقص عليه الأمر وتوسل إليه أن يأتي معه إلى دار الكندي فيُظهر له أنه الساكن المنتظَر حتى يبرأ أشعب من وعده ... فإذا انتهى العَشاء، وعاين الصديق الدار، كان له أن يتعلل ويتمنع ويُبدي الرفض ويطلب الفسخ. ولم يكن عند «بنان» في تلك الليلة ما يُعتَق به هو أيضًا. فما علم أن العَشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع أشعب ... وسارا في الطريق فأوصاه أشعب أن يُفهِم الكندي أول الأمر أنه قابِل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط.

فالتفت «بنان» إلى صاحبه قائلًا: قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط؟

فأجاب أشعب: في شرطه على السكان أن يكون له رَوْث الدابة، وبَعْر الشاة، ونِشوار العَلُوفة، وألا يُخرِجوا عَظمًا ولا يُخرِجوا كُساحة، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان، وغَرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حُبلى في بيته.

أقبل الضيفان على دار الكندي فألفياه قد أعد الخوان وجلس في انتظارهما يتلمظ ويقول:

ومن البلية في الموائد أن يُرَى قوم جياع في انتظار القادم

فقعد أشعب على الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول:

سواء علينا أقْدَموا أم تأخروا نوافي مع الطباخ ساعة يغرف

وأشار إلى صاحبه «بنان» بعد أن غمزه بكوعه: لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع!

فقال الكندي: انتظرته إذن قليلًا؟

فأجاب بنان على الفور: نعم، لقد انتظرني مقدار ما يأكل إنسان رغيفًا!

وتناول الخبز. فقال الكندي: لقد انتظرك إذن طويلًا.

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك. وأشعب وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ في الطيبات، فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة، حتى أخذ أشعب الذي يستقبله، ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدَي صاحب الدار، ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك، وعارضه زميله بنان وحاكاه.

فلما أن نظر الكندي إلى الثريدة مكشوفة القناع مسلوبة عارية، والفرخ كله بين يدَي أشعب وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه، تناولها فوضعها أمام الضيف الجديد واحتسب بها في سبيل الكرامة والبر والضيافة، وهو يتميز ويقول؛ ليخفي غيظه الكظيم: قال الحكماء: «عليكم بشرب الماء على الغداء» فلو شرب الناس الماء على الطعام ما أُتخموا. وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء، وربما كان شبعان وهو لا يدري.

فقال بنان: شبعان! والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعًا من أفواه الناس!

ثم مد يده إلى الخبز. فغمزه أشعب هامسًا: تمهل وتحشم، حتى لا يفطن إلينا ويفر منا ... أنت لا تعرفه، لأَنْ يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني!

فسحب بنان يده وهو يهمس في أذن أشعب: أَوَيريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فَتْرة نبي؟

ولحَظهما الكندي وظن أنهما يتسارَّان في أمر الخبز ويستصغران حجمه ... فأمسك برغيف ورَطَلَه في يده وقال: يقولون إن خبزي صغير! فمن الزاني ابن الزانية الذي يستطيع أكل رغيفين منه!

فبُهِتَ بنان، وأراد أن يفتح فاه، وإذا بالباب قد فُتِحَ عليهم ودخل جارٌ للكندي، قرأ الجميعَ السلام وهم يأكلون فردوا عليه، ولم يعرض الكندي عليه الطعام.

فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره في السكن، فما تمالك أن قال له: سبحان الله! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل.

فتأدب الرجل وقال حياء: قد والله فعلت.

فأسرع الكندي يقول: ما بعد القسم بالله شيء.

فكَتَفَ الرجل بذلك كَتْفًا لا يستطيع معه قبضًا ولا بسطًا، وتركه في مكانه لا يَريم. ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر. ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفًا خجلًا.

فرَقَّ له أشعب وقال له: أين تريد؟

فقال الرجل: إلى منزلي أتوضأ.

فقال له أشعب: ولماذا لا تتوضأ ها هنا؟ فإن الكنيف خالٍ نظيف، والغلام فارغ نشيط، وليس من الكندي حشمة، ومنزله منزل إخوانه.

فدخل الرجل فتوضأ، والكندي ينفخ من الغيظ.

ولحَظه أشعب فقال له: هون عليك. إنما كل بُغيتي أن أُسَخيك وأَنفِيَ عنك التبخيل وسوء الظن.

فقال الكندي: فهمنا أن تدعو الناس إلى غدائي لتُسَخِّيَني، ولكن لا أفهم أن تدعوهم ليَخرَءوا عندي.

وعاد الرجل فجلس عن كثَب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى الكندي قائلًا: جاءتني رقعتك اليوم وفيها أنك تَزيد عليَّ أجر الدار خمستين، لأن ابن عمي ومعه ابن له قد نزلا عليَّ ضيفين!

فأجاب الكندي على الفور: نعم، إذا كان مُقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة يجر علينا الطمع في ليالٍ كثيرة.

فقال الرجل: ليس مُقامهما عندنا إلا شهرًا أو نحوه.

فقال الكندي: إن دارك بثلاثين درهمًا وأنتم ستة، أي لكل رأس خمسة، فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين.

فقال الساكن متعجبًا: وما يضرك من مُقامهما، وثِقْلُ أبدانهما عليَّ أنا دونك. ما هو إذن عذرك لأعرفه؟

فترك الكندي الأكل واتجه إلى ساكنه قائلًا: عذري واضح كالنهار. والخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة. وهي قائمة معروفة: من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة المئونة. ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت، كثر المشي على ظهور السطوح، والصعود على الدرَج، فينقشر الجص وينكسر العتَب، وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب وتقلعت الرَّزَّات. فساكن الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها، وهو الذي يُبلِي جِدَّتها ويُذهب عمرها بسوء تدبيره، وإنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلا بعد أن كَسَحها ونظفها لتَحْسُن في عين المستأجر، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابًا لا تُصلحه إلا النفقة الموجعة، ثم لا يدع بعد ذلك مِترَسًا إلا سرقه، ولا سلَّمًا إلا حمله، وإذا أراد الدق في الهَوْن ترك الصخرة المجعولة لذلك ودق على الأجذاع حيث جلس تهاونًا وقسوة وغشًّا. هذا فضلًا عما يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا لشِكايتهم. فإذا أردنا أن نجعل الغُرْم بالغُنْم، وأن نطلب بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب!

وسكت الكندي فجأة، فقد حانت منه الْتفاتة إلى الضيفين، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام وأمعنا هما في محو أثر الخبز والسمك، إلا «شبُّوطة» كان قد نجح في وضعها بين يديه، وكان قد أكبر أمرها لسِمَنها وكِبرها ولشدة شهوته لها، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها، فما كاد يَحسِر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها، فلما رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتُلي، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشبوطة

فانتزع الجانبين جميعًا واكتسح ما على الوجهين. فلما أكل أشعب جميع أطايبها وبقي الكندي في النِّظارة، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد، بينما هو يرى أشعب يَفْرِي الفَرِيَّ ويلتهم الْتهامًا، صاح به: حسبك حتى لا يقتلك الطعام!

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ: إذا كان الأجل موقوتًا، فلأن أموت شبعًا أحب إليَّ من أن أموت جوعًا!

وقنط الكندي من الأكل مع هذين الرجلين، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن، واتفق معه على الزيادة في الكراء كما طلب، وشيعه إلى الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل. وبنان يتجشأ ويقول: لعن الله «القدَرية» ... من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام، وقد كان في اللوح المحفوظ أني سآكله!

فكظم الكندي غيظه وقال في نفسه: تعال غدًا فإن وجدت شيئًا فالعن «القدرية» والعن آباءهم وأمهاتهم!

وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان من الطعام، وهما على خير ما يكون الإنسان راحةً وهناء. وجعل الكندي ينظر إلى خوانه منتهَك الحرمة، عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة، فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل، وشعر بالكرب والغم. فما تمالك نفسه، وأقبل عليهما يقول في نبرة المتوسل: أسألكما بالله الذي لا شيء أعظم منه، أنا الساعة أيسر وأغنى، أو قبل أن تأكلوا طعامي؟

فقالا معًا: ما نشك أنك حين كنت والطعام في ملكك كنت أغنى وأيسر.

قال: فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة؟

قالا: بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر.

فلم يحتمل الكارثة، وصاح في نبرة ألم وندم وغضب: آه! من ذا الذي يلومني إذن على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر وباعدوني من الغنى، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب؟!

فرأى أشعب الخطر والضرر كله في ترك هذا الرجل على هذه العقيدة فأسرع يقول له: ولكن قد فاتك أمر: إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجني الكثير. ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المئونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراءً لدارك الخالية؟ أما كنت تقول الساعةَ إن الغُرم بالغُنم؟! ... فأنت والله في آخر الأمر الغانم الرابح!

فتفكر الكندي لحظة وبدا عليه الاقتناع، فاطمأن في الحال قلبه، وانفرجت أساريره، وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح ... وقال: إذن فادعُ لي!

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال: مَنَّ الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة، وأمتعك بضِرس طَحون ومعدة هَضوم، مع السعة والدعة والأمن والعافية! ... هذه دعوةٌ مغفولٌ عنها!

جعل أشعب وبنان يُدللان الكندي ويفكهانه ولم يشكا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة، ولكن الكندي جعل يتغافل ويتناوم. فلمَّح له أشعب بما يصبو إليه قائلًا: إن المجلس والله ليس فيه غناء ولا نبيذ ... فهو كالبيت الخرب!

فلم يُسمَع لكلامه صدًى. وطال تغافل الكندي فلم يجد أشعب بُدًّا من التصريح. فأقبل عليه يقول: اجعلها مرة ليس لها أخت ... ودعوة لن تعود إلى مثلها ... واضحك واطرَب ليلة في العمر بقليل من نبيذ!

ولما بلغ منه ومنهما المجهود، ورأى الكندي أنهما مقيمان مصران، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه، قام فأحضر لهما قِربة نبيذ مع أكواب ووضعهما بين يدَي أشعب وقال له: الآن غَنِّ وأطربني والآمرُ الله.

فانقض أشعب وبنان على الكئوس. وشرب بنان شرب العطشان الصادي. وأفرغ أشعب كأسه في جوفه وهو يرفع عقيرته منشدًا:

امدح الكأس ومن أبدعها　　واهجُ قومًا قتلونا بالعطش
إنما الكأس ربيع باكر　　فإذا ما لم نذقها لم نعِش

فطرب الكندي للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه: والله ما قتلوكم بالعطش، ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشرَه.

وملأ كأسه وقال: غن أيها المغني!

فملأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل:

لا تحفلن بقول اللائم اللاحي　　واشرب على الورد من مشمولة الراح
كأسًا إذا انحدرت في حلق شاربها　　أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح الكندي من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين. وأفرغ في حلقه كأسا أخرى وهو يقول:

اسقني حتى تراني مائلًا وترى عمران ديني قد خرب

وسكِر الكندي. وأمعن أشعب في الغناء:

ما زلت أَسْتَلُّ رُوح الدَّنِّ من لُطُف وأستقي دمه من جَنْب مجروح
حتى انثنيت ولي رُوحان في جسدي والدن مُنطَرِح جسمًا بلا رُوح

فطرب الكندي ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب، فشق قميصه وقال لأشعب: افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسي.

فنظر إليه أشعب دهشًا ... فصاح الكندي: ويلك، شق أيضًا أنت قميصك!

فقال أشعب جزِعًا: أصلحك الله! أتريد أن أشقه وليس لي غيره!

فقال الكندي: «شقه وأنا أكسوك غدًا.»

فأجاب أشعب: «فأنا إذن أشقه غدًا.»

فقال الكندي: «وأنا ماذا أصنع بشقك غدًا؟»

فقال أشعب: «وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة؟»

ولبثا في ذلك وقتًا يتساومان، وبنان ينظر إليهما ويعجب، وأخيرًا صاح في الكندي: ما كل هذا؟ إني لم أسمع قط بإنسان يحاور ويناظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب! إذا كنت طربت الآن حقًّا، فاكْسُه الآن القميص!

وهزت الكندي نشوة الخمر ونخزة الوهم، في غفلة من غريزته النائمة فقام يتعثر إلى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب. فلما صار القميص على أشعب، خاف البَدَوات، وعلم أن ذلك من هَفَوات السكر، فتحين الفرص، وأوهم الكندي أنه ذاهب لقضاء حاجة ثم مضى توًّا إلى منزله بالقميص فجعله «بَرنَكانًا» لامرأته.

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندي وبنان، وهما ما برحا في انتظار عودة المطرب، فانطرح بنان على الأرض جاعلًا فراشه البساط ومرفقته يده. ولم يكن في المكان غير مِرفقة ومِخدة، فأراد الكندي إكرام ضيفه فأخذ المِخدة فرمى بها إلى بنان فأباها وردها عليه. وأبَى الكندي، وأبَى هو، ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان المجاملة

في لسان متلعثم وجِذع متمايل، إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر: سبحان الله! كيف يكون أن تتوسد مِرفقك وعندي فضل مِخدة؟!

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده. ومر بعض الليل دون أن يغرَق بنان في النوم؛ ليُبْس الفراش ورداءة الموضع. وظن الكندي أن الضيف قد نام، فجاء قليلًا قليلًا حتى سل المِخدة من تحت رأسه، فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال: «قد كنت عن هذا غنيًّا!»

فارتبك الكندي وقال: «إنما جئت لأسوي رأسك.»

فأجاب بنان: «إني لم أكلمك حتى وَلَّيت بالمِخدة.»

فأجاب الكندي: «كنت لهذا جئت، فلما صارت المخدة في يدي، نسيت ما جئت له، والنبيذ — ما علمتَ — والله يذهب بالحفظ أجمع!»

وأراد الكندي أن يرد عليه المخدة، فأبى بنان، فألح وألح ... وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد ... فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم الثقيل في الهزيع الأخير من الليل ... فانطرحا كأنهما حجَران والمخدة عن كثب منهما منطرحة منفردة وحيدة.

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس في وجهه فنهض ونظر حوله مذعورًا، فأدرك ما كان فيه. ورأى الكندي ممددًا يغط على مقربة منه فأسرع إلى نعله فحمله في يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ.

وعلا النهار ... وأقبل أهل البيت ينقرون على باب الحجرة، فصحا الكندي وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شيء، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما، فصاح صيحة منكرة، ووضع نعله في قدميه وانطلق إلى مسكن أشعب فدق عليه الباب، فخرج له، فقال له: أين الساكن؟

– لقد تركته بين يديك، فأنت الذي تُسأل عنه.

– وأين القميص؟

– إنك قد وهبتني إياه.

فقال الكندي مقاطعًا في رفق مصطنع: أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ فإني أكره ألا يكون لي حمد ولا شكر، وأن يوجه الناس هذا مني على السكْر، فرُد عليَّ القميص حتى أهبه لك صاحيًا عن طيب نفس، فإني لا أحب أن يذهب شيء من مالي باطلًا.

فلم يتحرك أشعب لهذا القول. وعلم الكندي أن مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلي عليه هذه الحجج. فأقبل عليه يقول متلطفًا: يا أشعب، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخَذون بشيء، فرُد القميص عافاك الله!

فقال أشعب مبتسمًا: «إني والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جئت به لامرأتي. وقد زدت في الكُمين وحذفت المقاديم، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه.»

فقال الكندي على الفور: نعم آخذه، لأنه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك ... ومَدَّ ذراعه.

فقال أشعب: «إنه عند الصباغ.»

فقال الكندي: «هاته.»

– ليس أنا أسلمته إليه.

فعلم الكندي أنه قد وقع، ولا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء، فقال في زفرة حارة من كبد محروقة: بأبي وأمي، صدق رسول الله حيث يقول: «جُمِعَ الشر كله في بيت وأُغلق عليه، فكان مفتاحه السكْر!»

أشعب وبنان

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسولٌ يحمل رقعة من القَينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد، وتخبره أنها راحلة في الغد إلى شأن من شئونها في الكوفة، وتُعرِّض له في ختامها بجفاء قلبه وزيف وُده وتبدي له رِيبتها فيما يظهره لها من الوجد. فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب. فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب في ذيلها:

أنـا والـلـه أهـواك ولكن ليس لي نفقة
فإما كنتِ تهويني فقد حلَّت لي الصدقة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية، وخرج أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر في أمر العشاء، وإذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل، فما كاد يراها حتى وقف في مكانه حائرًا لا حَراك به.

فسلمت عليه وقالت: لا تخش شيئًا … إنما أتيت لأودعك قبل رحيلي غدًا. والله لولا اشتغالي اليوم بإعداد حوائجي ومتاعي وإخلاء داري لوافيتك بما تشهيت عليَّ من تلك الأطعمة التي يحبها قلبك وتهيم بها معدتك!

فقال لها: وماذا أنت صانعة في الكوفة؟ أذاهبة للغناء؟

فقالت: «نعم، إنك فيما أظن قد رضيتني حَذاقة به ومعرفة.»

فقال: «نعم، ولكن اختلفي أيضًا إلى مجمع مولى الزبير فإنه حسن الغناء، فاعلقي من غنائه أصواتًا عشرة. فإنك والله لخليقة أن تَفتِني الناسك وتخرجيه من صومعته ساجدًا لك».

فقالت: كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين.

فسُقط في يد أشعب، وارتبك واشتدت حيرته فلم يدر ما يصنع، وتفكر لحظة، ثم قال في نفسه: «ما لي إلا منزل بنان!» ونظر إليها ثم قال: «اتبعيني!»

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه، إنه لا يجهل أن وقوع طفيلي على طفيلي لا يجوز، ولكن وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنبسط يده ويوَفِي الضيافة حقها. واقتربا من الباب، فاستوقفها، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج إليه، فقال همسًا: أكمِل الخير! معي وجه صبيح، يعدل الدنيا بما فيها، وقد حصل عليَّ ضيقة وعسر وإملاق.

فقال بنان على الفور: قد شكوتَ أنت والله مما كدتُ أُباديك أنا لشكواه!

غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قَدِّها فقال: ائت بها والله المستعان!

فدخلت القينة خلف أشعب، واستقبلها بنان بالتحية، فسَفَرت فإذا هو يرى وجهًا رقيقًا كأنه كوكب به عينان مملوءتان سحرًا وأنف كأنه قصَبةُ دُر، وفم كأنه جُرح يقطر دمًا. وردت عليه التحية بلسان فصيح، فحار بصره وذهب لبه وجل خَطْبه وتلجلج لسانه وتغللت رجلاه، ثم ثاب إليه عقله فدعاه للجلوس في صدر المكان، وسألها قائلًا: أيتها الجارية! إنسية أنت أم جنية، سمائية أم أرضية؟!

فضحكت القينة وقالت: «بل إنسية أرضية واسمي رشا».

فسُرَّ أشعب واطمأن قلبه لِمَا رأى من افتتان بنان، وأنشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة:

رشَأٌ لولا ملاحته خَلَت الدنيا من الفتن
كل يوم يَسترقُّ له حسنُه عبدًا بلا ثمن

وأشار بإصبعه إلى بنان، فقال بنان: إي والله عبد بلا ثمن، لو سمحت بذلك سيدتي!

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال: إنك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك وتُذهلين الألباب ببراعة منطقك، فكيف لو كنت تجيدين الغناء؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر، ثم انطلقت تغني:

ولي كبد مقروحة، من يبيعني بها كبدًا ليست بذات قروح؟
أبى الناس، كل الناس، لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح؟

فطرب أشعب. وقام بنان من فوره فجلس بين يدي الجارية وقال: كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق، لو كانت الدنيا لي كلها صُرَرًا في كمي لقطَّعتها لك، فأما إذا لم يكن لي من ذلك شيء، فاللهم اجعل كل حسنة لي لك، وكل سيئة عليك عليَّ!

فابتسمت رشا وقالت: جزاك الله خيرًا ... فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمتَ به لنا.

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال: كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق إن كان وهب لك شيئًا أو حمل عنك وزرًا ... فهو ما له حسنة يهبها لك، ولا عليك سيئة يحملها عنك. فلأي شيء تحمدينه وتشكرينه؟

فضحكت وضحك بنان ... وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال: بحقي عندك ...

– ماذا؟

– تزيدين في السماع.

فنظرت إليه وقالت: وأنت، كيف علمك بالغناء؟

فقال مرتبكًا: علم لا أحمده.

فقالت: فعلام إذن أنفخ بغير نار؟! ... ما منعك من معرفته؟

فتدخل أشعب قائلًا: «منعه من معرفته أن له صوتًا أقبح من وجهي!»

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمة: لن أردك مع ذلك خائبًا ... أزيدك في السماع! وانطلقت تغني:

أنا التي لم ير مثلي بشرُ كلامي اللؤلؤ حين ينتشرُ
أَسحَرُ من شئتُ ولست أُسحر إن سمع الناس كلامي كفروا

فاستخف أشعبَ الطرب، ولم يدر ما يصنع فنهض في الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة. فصاح به بنان: ويلك، ما فعلت بعمامتك؟

فقال أشعب: تصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا الكلام وهذا الغناء على لسانها!

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضًا ورمى بها من النافذة قائلًا: أتسبقني أنت إلى بر الشيطان؟!

وضحكت الجارية، وضحك الجميع، وخرج أشعب إلى الطريق يأتي بعمامته، وخرج بنان خلفه يفعل مثله، فما كادا ينفردان حتى همس أشعب في أذن صاحبه: ويحك! متى الطعام والشراب؟ هذا والله لا يليق.

فأخرج بنان من ثيابه منديلًا نفيسًا يضن به ويحرص عليه، وقال: لا أملك والله غير هذا المنديل.

فاختطفه أشعب من يده قائلًا: هو البغية.

فقال بنان: «خذه ... لا بارك الله لك فيه!»

وجرى أشعب به توًّا إلى السوق.

عاد أشعب مع المساء، وقد باع المنديل بدينار، واشترى لحمًا وخبزًا ونبيذًا، ودخل على صاحبه بنان والجارية، فإذا هما يتساقطان حديثًا كأنه قطع الروض المطور، وإذا بنان يقول لها في شبه همس:

أتُرى الزمان يسرنا بتلاق ويضم مشتاقًا إلى مشتاق؟

فتجيبه هي بصوت خفي وترجيع شجي:

ما للزمان يقال فيه؟ وإنما أنت الزمان، فسُرَّنا بتلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلًا: «ما شاء الله! ما شاء الله!»

فانتبها مذعورَين، والتفت بنان إلى رفيقه قائلًا: «ما صنعت؟»

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب، وأخبره بما فعل، فقال له بنان: كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجهٍ نظيف بلا نُقْلٍ ولا ريحانٍ ولا طِيب؟ اذهب فأكمِل الخير!

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدوًا حتى لا تطول له غيبة.

وأقبل أشعب بالنُّقْل والريحان والطيب وهو يلهث. وكان ظلام الليل قد هبط، فألفى باب الدار مفتوحًا كعهده به عند خروجه، فدخل. وإذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثرًا. فسُقط في يده وبقي متلهفًا حائرًا يرجم الظنون ويجيل الفكر سائر وقته، حتى مضى من الليل جزء، ونفد صبره، فقال في نفسه: أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على أثر؟

ونهض يجوس خلال الدار، وإذا هو يقف على باب سرداب، وإذا صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه، فأكلا وشربا وتنعما. فلما أيقن أشعب ذلك دلَّى رأسه ثم نادى زميله: ويلك يا بنان!

فلم يجبه أحد. فرفع صوته ونادى ثلاثًا. فأجابه آخرَ الأمر صوتُ بنان من أعماق السرداب:

وأمسيت في ليلين بالشعر والدجى وشمسين من كأسٍ ووجه حبيب

ثم سكت الصوت. وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه، فلم يجيباه.

فبات وحده ليلة يقصُر عمر الدهر عن ساعة منها طولًا وغمًّا. وطلع النهار، فخرج إليه بنان، فما كاد يراه حتى وثب إليه صائحًا: أهذا يصح يا بنان؟

وجعل يؤنبه، فقال له بنان: يا صفيق الوجه! منزلي ومنديلي وطعامي وشرابي، فما شأنك في الوسط؟!

فبُهت أشعب لحظة، ورأى الجواب مفحمًا فقال «متمحكًا»: حق القيادة والفضول، والله لا غير!

وظهرت الجارية في تلك اللحظة، فولى بنان وجهه إليها وقال لها: بحياتي ألَا أعطيتِه حق قيادته وفضوله!

فقالت باسمة: «أما حق قيادته فعَرْك أذنه. وأما حق فضوله فصفع قفاه.»

فنظر أشعب إليها فاغرًا فاه. واستقبله بنان على الفور فعرك أذنه وصفعه، فالتفت أشعب قائلًا: ما هذا؟

فأجاب بنان: «الحكم.»

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر إلى بنان شزرًا: الحكم؟!

فقال بنان باسمًا: نعم، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العدل والاستحقاق.

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي شكل الخبز وطعم اللحم. فخرج من الجوع يهيم في الأسواق، فلم يظفر بشيء، ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين، ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام، سوى قول جماعة مروا به في الطريق يتحدثون في أمر المسيح الدجال. فقال أحدهم: إن الدجال رجل يخرج في سنةِ قحطٍ معه «جَرادق» أصبهاني، وملح «دَراني» و«أَنجُذان» سَرَخْسِي!

فتلمظ أشعب وصاح فيهم: هذا، عافاكم الله، رجل يستحق أن يُستمع له ويُطاع!

ثم سار في طريقه على غير هدى، حتى قادته قدماه إلى بيت صديقه بنان، فوقف تحت نافذته وأنشد:

أنا في حالٍ تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل: «لمن ذا؟» قلت: «ذا لي»
لقد أفلست حتى محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حل أكلي لعيالي

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له: «ادخل!»

فدخل أشعب مسرعًا يقول: «حفظك الله وأبقاك!»

وجعل يتنسم رائحة قُتار أو طعام في البيت فبادره بنان بقوله: إني لم أدْعُك من أجل ذلك! فأنا حالي كحالك، إنما قد خطر لي خاطر لعل فيه النجاة لي ولك.

– ما هو، أصلحك الله؟

– ما قولك لو رحلنا معًا اليوم إلى مكة فقد نجد فيها رزقًا؟ وقديمًا قالوا: في السفر سبع فوائد. ونحن والله لا نبغي غير فائدة واحدة هي: الطعام ومعاشرة الكرام.

– وكيف لنا بالسفر؟

– اليوم ترحل قافلة إلى مكة، لي فيها من يحملني ويحملك بغير نفقة ... فهلم بنا!

مضى أشعب وبنان من ساعتهما إلى القافلة. وكان اليوم يوم جمعة. فبينما هما في الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلي الجمعة. فتمهل أشعب وحدثته نفسه بالصلاة، فأخبر زميله، فانتهره وثناه عن رغبته، فأصر أشعب قائلًا: أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة.

– اذهب أنت وحدك، ولئن فاتتك القافلة ليس عليَّ لوم.

– إنما هي ركعة أستودع بها المدينة.

ومشى بنان في طريقه. وعرَّج أشعب على المسجد ودخل. وكانت الصلاة قد بُدئت. ووجد الصف تامًّا. فلم يستطع أن يقوم وحده، فجذب ثوب شيخ أمامه في الصف ليتأخر فيقوم معه، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائمًا خلفه في قفاه ويدعو الله عليه. وكان الإمام من سوء الطالع رجلًا مبطاءً ثقيل الحركات، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة «حمزة»؛ مد وهمزة، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل، ثم رفع رأسه ويده وقال: «سمع الله لمن حمده» وقام حتى ما شك أشعب أنه قد نام.

وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات القافلة. وضرب الإمامُ بيمناه وأكبَّ لجبينه ثم انكب لوجهه، وأشعب يتقلى على نار الصبر، ويتقلب على جمر الغيظ، وليس له إلا السكوت والإذعان، أو الكلام والقبر، لما يعلم من خشونة القوم في ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها. فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل. ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة، فلم ير بين الصفوف فرجة، فعاد إلى السجود يائسًا، حتى كبر الإمام للقعود وقام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة، وكاد يستنزف أرواح القوم. فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد ومال إلى التحية، وقال أشعب في نفسه: «لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج»، إذا رجل قد قام من بين الناس صائحًا: «أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابة فليعرني سمعه ساعة.» فلم ير أشعب مناصًا من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس.

وصاح الرجل: «أيها الناس! خليق بي ألَّا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق. قد جئتكم ببشارة من نبيكم، ولكني لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته.»

فربط هذا القول أشعبَ بالقيود وشده بالحبال، فلو تحرك بعدئذٍ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل الجاحد في نظر الجميع، ومضى الرجل يقول: «رأيته في المنام ﷺ كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام، يسير والنجوم تتبعه، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه، ولقد علمني دعاءً أوصاني أن أعلمه أمته، فكتبته على هذه الأوراق بمسك وزعفران، فمن دفع لي ثمن القرطاس أعطيته.»

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته، ورأى أشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه، وجعل يتأمل فصاحته في وقاحته، ورَبْطَه الناس بهذه الحيلة البارعة، وأَخْذَه المال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة!

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر في الأمر ويقول في نفسه: «ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل، بدلًا من انتظار الولائم والأعراس!» وسار في طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه، فعاد خائبًا في غم وجوع لا يدري أين يذهب ولا كيف يجد غداءه، وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة، فقال في نفسه: «ظفرنا والله بصيد ثمين.»

وأقبل على الريفي صائحًا: «حياك الله يا أبا زيد! من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ هلم إلى بيتي!»

فوقف الرجل دهشًا يقول: «لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد».

فقال أشعب في صوت المستدرِك: «نعم، لعن الله الشيطان وأبعد النسيان، أنسانيك والله طول العهد، كيف حال أبيك؟»

فقال الرجل: «لقد نبت الربيع على قبره.»

فصاح أشعب: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!»

ومد يده إلى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع، فقبض الريفي على يده قائلًا: «نشدتك الله لا تمزقه!»

فأظهر أشعب التجلد والطاعة، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفي قائلًا: هلم إلى بيتي كي نتغدى، أو إلى السوق نشتري شواء، نعم ... السوق أقرب وطعامها أشهى.

ومشى به إلى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه شهية إلى الأنوف فتحرك أفواه البطون، وقال أشعب لصاحب الحانوت: «أفرز لأبي زيد من هذا الشواء!»

ونظر إلى صوانيَ معروضةٍ وقال: «ثم زِنْ له من تلك الحلوى، واختر له من تلك الأطباق، وانضِدْ عليها أوراق الرُّقاق ورُشَّ عليها شيئًا من السكَّر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئًا.»

فانحنى الشوَّاء بساطوره على ذلك اللحم الطري. وقطَّع وقدَّم إلى أشعب والريفي، فجلسا وأكلا حتى استوفيا. فقال أشعب لصاحب الحلوى: زن لأبي زيد من اللَّوْزِينَج رطلَين، فهو أجرى في الحلوق، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤي الدُّهن يذوب كالصمغ قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئًا.

فوزن صاحب الحلوى لهما. وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه، فقال أشعب للريفي: «يا أبا زيد، ما أحوجنا إلى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفة!»

فقال الريفي: «صدقت.»

فقام أشعب وهو يقول له: «اجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء!» وخرج أشعب فائزًا بالسلامة ومعدة مملوءة.

ومضى النهار، وعلم الريفي من إبطاء أشعب أنه لن يعود ونفد صبره من طول الانتظار، فقام إلى حماره، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له: «أين ثمن ما أكلت؟»

فقال الريفي: «لقد أكلته ضيفًا.»

فلكمه صاحب الحانوت لكمة، وثنَّى عليها بلطمة وقال له: «متى كنا دعوناك؟» هاك فخذ ...

ونزل عليه الشوَّاء لكمًا ولطمًا وهو يقول: زِنْ يا أبا الوقاحة عشرين!

وجعل الريفي يصرخ ويلعن ويصيح: «لعن الله ذلك الشيخ المحتال، لقد قلت له أنا أبو عبيد، فيقول لي أنت أبو زيد!»

أشعب في مكة

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبرًا عن بنان. ولا يجد سبيلًا إلى لقمة، فقد عرفه الناس في المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة، ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام، كأنما الناس في لؤمهم قد أصبحوا يأكلون في بطون الأرض أو أجواز السماء. ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئًا ولا يفكر في شيء، فدَهَمَ في جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدَّون وهم غرباء لم يعرفوه. فقال لهم: سلام عليكم معشر اللئام!

فرفعوا أبصارهم إليه قائلين: «لا والله بل كرام!»

فثنى رجله في الحال وجلس بينهم وهو يقول: اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين!

ثم مد يده في القصعة التي بين أيديهم وهو يقول: «ماذا تأكلون؟»

فأرادوا أن يَقِفوا تهجمه، فقالوا في فتور: «نأكل سُمًّا!»

فحشا فمه وازدرد وهو يقول: الحياة بعدكم حرام!

وجعل يجول في القصعة كما يجول الفارس في الميدان. فلما رأوه قد أغار على أكلهم، وكاد يحرمهم زادهم في غير حشمة ولا حياء، نظر بعضهم إلى بعض ثم التفتوا إليه قائلين: أيها الرجل! هل عرفت منا أحدًا؟ فأشار أشعب بإصبعه إلى الطعام وقال: «عرفت هذا.»

فسكتوا عنه، وقد استظرفوه، وتبادلوا الحديث، فعرف منهم أشعب أنهم من أهل مكة، وقد جاءوا في القافلة الأخيرة، وقال أحدهم إن معه رقعة من رجل اسمه بنان في مكة لرجل اسمه أشعب في المدينة، فاهتز أشعب سرورًا وكشف لهم عن حقيقته، وتسلم الرقعة، وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر في أحسن حال ... وقد بارحته أيام العسر

والضيق ... وله حرفة شريفة يَدرُّ منها المال، وهو يسأله أن يأتي إليه مع أول قافلة متهيئة للرحيل، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في ذلك الكسب الحلال.

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى مكة. ولم يكن معه مال ولا أحمال، ولم يدْرِ كيف غاب عن فطنة بنان، وقد أصبح حسن الحال كما قال، أن يرسل إليه مع الرقعة بما يقيم أَوَده حتى الوصول. لعله خشي أن يأخذ أشعب المال ويكسَل عن تجشم الرحيل. ولم يَعْدَم مثل أشعب الوسيلة، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم. وقد كان سيره أول الأمر إلى جانب ناقة عليها شيخ وشاب، فلحَظ أن الشاب كثير البكاء، فاستعلم فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه، وقد فرقت بينهما الأحداث، وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ في السفر والمئونة وكانا على ضيقة وعسر. فجعلا لهما في كل يوم قرصًا من الخبز. وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد يشتكي العشق، ويتضور الشيخ جوعًا، وكان اسم ذلك الشاب جعفرًا، فجعل أشعب يغني فيهما قائلًا:

لقد رابني من جعفر أن جعفرا
يطيش بقرص الشيخ في آخر الليل.
فقلت له: لو مسَّك الحب لم تَبِت
سمينًا وأنساك الهوى شدة الأكل.

فضحكت القافلة وأَنِست إلى أشعب، وحمله معه رجل من التجار يسافر وحده على جمل، فلبث أشعب معه طول الطريق ينزلان ويقومان، والرجل في كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئًا. فقال له الرجل ذات يوم: «قم اليوم فاطبخ.»

فقال أشعب: «لا أُحسِن ذلك.»

فطبخ الرجل، ثم قال لأشعب: «قم فاثرُد.»

فقال أشعب: «والله كسلان.»

فثَرَدَ الرجل، ثم قال: «قم فاغرف.»

فقال أشعب: «أخشى أن ينقلب على ثيابي.»

فغرف الرجل ثم قال لأشعب: «قم الآن فكل.»

فنهض أشعب قائلًا: «قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك!» وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين.

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان، فقيل له إنه كان قد استأجر دارًا في مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب. فشكاه الناس إلى والي مكة فنفاه إلى عرفات، فمشى أشعب من ساعته إلى عرفات، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلًا ورأى أمام المنزل قطيعًا من الحمير مرتبَطة، فما رآه بنان داخلًا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا، وأخبره بما هو فيه من الرخاء واستواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئونه غير الغناء والطرب، وهذا لا يقوم به غير أشعب، ولهذا أرسل إليه. فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه: «أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال!» فانتهره بنان وقال له: «أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا إلى موائد الغير وشرابهم؟ إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا، فماذا في ذلك؟»

فقال له أشعب: أما نفاك والي مكة؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا؟

فأجاب بنان: الأمر هين. فقد أرسلت إلى الناس أقول: «ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه!» فقالوا: «وأين بك وأنت في عرفات؟» فقلت لهم: «حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلًا عن النزهة.» ففعلوا، وما زالوا يفعلون، وتلك حميرهم بالباب.

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة، لقد عرفتْ يدُه ثِقْل الدراهم، وبطنُه الشبع، وظهرُه الكساء، وأصبح الشراب من لزوم عمله، لا يُفيق منه إلا إليه. وهو يُعَد شريك بنان في كل ما ملك، حتى في ذلك الخادم الذي يقوم بخدمتهما.

ولم يدرِ أشعب أين ينفق ماله، ولم يشأ أن يركب حمارًا بالكراء يحمله في غُدُواته ورَوْحاته من مكة إلى عرفات، ومن عرفات إلى مكة. فذهب إلى نخاس بسوق الدواب فقال له: اطلب ما شئت من الثمن، وأعطني حمارًا يليق بي وأليق به.

فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب: تبغي حمارًا عظيم الهيئة سريع الخطوة؟

فقال أشعب: أبغي حمارًا ليس بالصغير المحتقَر ولا بالكبير المشتهَر، إذا خلا له الطريق تدفق، وإذا كثر الزحام ترفق، إن أقللتُ عَلَفَه صبَر، وإن أكثرتُه شكر، وإذا ركبتُه هَامَ، وإن ركبه غيري نام.

فنظر إليه النخاس محملقًا مشدوهًا ثم قال له: يا عبد الله، اصبر … فإن مسخ الله قاضي مكة حمارًا أصبت حاجتك إن شاء الله.

ثم أراه بعد ذلك حمارًا حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب، ولكن فيه من الأمارات ما يغري، فركبه أشعب من ساعته ونقَد الرجل الثمن. ومشى به يتبختر، مِشية لم يعرفها مِن قبلُ لا على قدميه ولا على ظهر دابة. وعاد به إلى عرفات … فلم يخلطه مع الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيمًا لشأنه. فربطه

وحده تحت نافذة بنان، ودخل فألفى مجلس الشراب قائمًا، والرجال والنساء مختلطين. وبنان لِيأسه من غيبة أشعب في السوق، ولِمَا صوَّر له السُّكْر من الوهم والخيلاء، قد حل محل أشعب في الغناء. وإذا القوم يضِجون، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت، وما كادوا يرون أشعب داخلًا حتى هللوا فرحين، وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء، وارتفعت الأصوات تقول له: أسكت لنا صاحبك!

فأراد أن يسكته فلم يستطع، وأقبل الناس على بنان يقولون له: لقد حضر أشعب، فمن أحسن غناء ... أنت أو أشعب؟

فقال بنان: أنا شيء وأشعب شيء ... أنا أُغَني بدرهم وأسكت بدينار، أما أشعب فيغني بدينار ويسكت بدرهم، فسكوتي إذن أغلى من سكوت أشعب! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن!

فصاح الناس: ندفع والله!

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغني، فقال لهن: بثمنه كما قضى زميلي.

فقلن: ندفع والله!

فسكت بنان، ونهَق الحمار تحت النافذة. فقال أشعب: هذا والله هو وحده الذي طرب لغناء بنان!

ثم شرب رطلَين ورفع عقيرته يغني بصوته الحسن ويشير إلى بنان:

ومُـغَـنٍّ إنْ تـغـنَّـى أورث النُّدمان هَمَّا
أحسنُ الأقوام حالًا فيه من كان أصَمَّا

فضحك المجلس وطرب، وانهالت على أشعب آيات الحمد والإعجاب.

مرت الأيام وشاعت في مكة أخبار ذلك المنزل في عرفات، وأعاد أهل مكة الشِّكاية إلى الوالي أن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل، حتى فسدت أحداث مكة. فأرسل الوالي الشُّرطة إلى بنان وأشعب ليحضروهما، وكانا قد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام. وقد شرب لَيْلَتئذٍ أشعبُ حتى جعل يقول لمن حضر:

اسقني صِرْفًا حُمَيَّا تترك الشيخ صبيا
وتُريه الغَيَّ رُشدًا وتريه الرُّشد غَيَّا

ورأى خادمهما الشرطة مقبِلين، فأسرع يخبرهما، وكانا قد أعدا سردابًا يخفيان فيه الناس والحمير إذا وقع خطب من هذه الخطوب. فبادر إلى محو آثار ما كانوا فيه. وكبس الدارَ رجالُ الوالي ... فلم يجدوا غير أشعب وبنان ... فقادوهما إلى مكة. فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة. ودخل الرجال بأشعب على الوالي، فلما رآه قال: ليس هذا ببنان، من أنت أيها الرجل؟

فغمز أشعب بعينه وقال: «خادمك وعبدك!»

ولحَظ الوالي من حركاته ما جعله يقول لرجاله: هذا الرجل شارب.

فقال أشعب: «لا ... أصلحك الله!»

فقال الوالي: «استنكِهوه!»

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه، ثم قالوا: إن نكهته لا تَبِين عليه.

فقال الوالي: «قيئوه!»

فصاح أشعب: وإن لم أقئ شرابًا فمن يضمن لي عشائي؟!

ولم يكد يتم عبارته حتى دخل بقية الرجال ببنان. فما إن رأى الوالي بنان حتى عرفه وصاح به: يا عدو الله! طردتك من مكة فصرت تفسد في المشعر الحرام!

فقال بنان: «يكذبون عليَّ، أصلح الله الأمير.»

فأمر الوالي بوضعهما في الحبس حتى الصباح. وما إن طلع النهار وجلس الوالي في مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأُحضروا. فسألهم الدليل فقالوا: «أصلحك الله، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير مكة فترسل بها أُمَناء إلى عرفات، فيُطْلِقوها، فإن وقفتْ كعادتها على منزله دون المنازل، فنحن غير كاذبين ولا مُبطِلين.»

فقال الوالي: «نعم، إن في هذا لدليلًا وشاهدًا عدلًا.»

وأمر من ساعته بحمير من حمُر مكة التي للكراء، فأُرسلت وأُطلقت فإذا هي تصير إلى منزل بنان لا تلوي على شيء، كأنها به عليمة خبيرة. فلما علم الوالي بذلك قال: «ما بعد هذا شيء ... جرِّدوه!»

فأتى الرجال ببنان وجرَّدوه من ثيابه، فلما نظر إلى السياط التفت إلى الأمير قائلًا: «لا بد أصلحك الله من ضربي؟»

فقال: «نعم يا عدو الله!»

فقال بنان: والله ما في ذلك شيء هو أشد على نفسي من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا، ويقولوا: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير!

فضحك الوالي، وفكر قليلًا، ثم قال: أتحب أن أَخَلِّيَ سبيلك؟ ... على شرط ...

– وما هو حفظك الله وأبقاك!

– أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد.

ذهب بنان وأشعب توًّا إلى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالي. فوجدا خادمهما قد سبقهما إلى النية، فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا في صُرَر، وتهيأ للهرب. فوثب عليه بنان فضربه ضربًا مبرِّحًا، فقال أشعب: ماذا تصنع؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعتُ فيه كما دفعتَ أنت ... وحقي فيه كحقك أنت!

فقال بنان: إني أضرب نصيبي منه!

فأشار أشعب إلى الصُّرر: وهذه؟

فقال بنان: كل شيء يُقْسَم بيننا بالعدل.

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضًا قائلًا: وأنا أضرب حصتي فيه.

فانفلت منهما العبد وكان جَلْدًا نشيطًا ذكيًّا، ورفع ثيابه وسَلَحَ عليهما وقال: «اقسما هذه على قدر الحصص!»

وولى الأدبار. وبقيا هما مشغولَين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه، وخرجا من ذلك النعيم آسفَين.

أشعب في الحمام

عاد أشعب وبنان إلى المدينة، فدخلاها دخول الظافرين، خلفهما عبدهما الهارب — وقد راجعاه وأرضياه — يحمل لهما الصرر والخيرات. وقد تعاهدا على أن يقيما معًا في منزل واحد لينفقا فيه هذا المال معًا. وذهب أشعب إلى داره أول الأمر، فرأى امرأته وعياله وترك لهم بعض النفقة، وعرَّج على الكِندي يسأل عن خبره ويضحك من أطواره، ويرى كيف وَقْع العودة عليه، فسأل عنه فقيل له إنه خرج فغبَّر من بُكرة الصباح ليقتضي رجلًا خمسة دراهم فَضَلَتْ دَينًا عليه، وأن هذا ما يشغله منذ أيام طويلة، فهو يخرج من أجل هذا الدَّين من أول النهار فلا يرجع إلا مع آخره لبعد الشُّقة وكثرة المماطلة، فجلس أشعب ينتظره حتى رجع، فما وقع نظر الكندي على أشعب ببابه حتى امتقع لونه، فابتدره أشعب صائحًا: لا تخش شيئًا، بأبي أنت وأمي!

وقص عليه أخبار الرحلة، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندي، وجعل ينظر إلى ثوب أشعب النظيف معجبًا أول الأمر، غير أنه عاد فهز رأسه وقال متفاخرًا: لا والله ... أين ذلك القميص!

فلم يفطن أشعب وقال: أي قميص؟!

وفجأة تذكر الليلة التي سكِر فيها الكندي، فضحك حتى دمعت عيناه، فأراد أن يسُره ويهون عليه تلك المصيبة التي ما زال يذكرها، فدعاه إلى طعام وشراب في ذلك المنزل الذي جعله هو وبنان لمنادمتهما. ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليُعِدَّ وليمة في ذلك المساء.

ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر، فقال للخادم: اختر لنا حمَّامًا نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء، وحلاقًا خفيف اليد حديد المُوسَى قليل الفضول.

فقاده الغلام إلى ما أراد، ودخل أشعب الحمام، فلم يَرُعْه إلا رجل قد دخل على أثره وعمَد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج، ودخل آخر فجعل يدلِّكه دلكًا يكُد العظام ويغمزه غمزًا يهدُّ الأوصال، ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء، وإذا الأول قد عاد فرأى الثاني منهمكًا في العمل فلكمه لكمة كادت تطيِّر أسنانه وقال له: يا لُكَع، ما لك ولهذا الرأس وهو لي؟

فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تُضيع صوابه، وقال له: بل هذا الرأس حقي وملكي وفي يدي.

وتلاكما حتى تعبا، وتجاذبا الأثواب وسارا يتحاكمان إلى صاحب الحمام. فقال له الأول: أنا صاحب هذا الرأس؛ لأني لطخت جبينه ووضعت عليه الطين.

وقال الثاني: بل أنا مالكه؛ لأني غسلته ودلَّكت صاحبه.

فقال الحمامي: ائتوني بالزَّبون أسألْه لأيكما هذا الرأس؟

فذهب الرجلان إلى أشعب وقالا له: لنا عندك شهادة، فقم معنا!

وكان أشعب ما زال موضوعًا في مكانه وضعًا، لم يفهم مما حدث أمامه شيئًا، ولا أدرك لهذا الشجار معنًى، فنهض وسار معهما إلى صاحب الحمام، فابتدره الحمامي قائلًا: يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق، قل لي: هذا الرأس لأيهما؟

فوقف أشعب دهشًا مشدوهًا لحظة، ثم قال: يا عافاك الله، هذا رأسي أنا، قد صحبني طول الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات، وما شككت أنه لي.

فقال له الحمامي منتهرًا: اسكت يا فضولي!

ثم مال إلى أحد الخَصمين وقال له: يا هذا ... إلى متى هذه المنافسة بينكما على رأسٍ صغير الشأن قليل الخطر!

ثم عرَّج على الخَصم الآخر وقال مهونًا عليه: وأنت يا هذا! هَبْ أنك لم تر رأس هذا التيس!

فقام أشعب من ذلك المكان خجِلًا، وارتدى ثيابه على عجل وانسل من الحمام، فوجد خادمه المنتظِر بالباب يقول له: نعيمًا إن شاء الله!

فهوى في الحال بكفه على قفا الخادم: أنعم الله عليك بهذا!

أشعب والحلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق، وأن يحذر هذه المرة، فلا يحضره فضوليًّا ولا ثرثارًا. فحسبه ما ذهب من الوقت في غير شيء، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب!

فانصرف وعاد برجُل، دخل فسلَّم، وما هو إلا أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له: جُعِلْت فداك، هذا وجه لا أعرفه، فمن أنت؟

فقال أشعب: اسمي أشعب.

فقال الحلاق: بأبي أنت وأمي، هذا الاسم لا يجهله أحد في المدينة! ومن أين قدمت؟ فإني أرى أثر السفر عليك؟

فقال أشعب: من مكة.

فقال الحلاق: حياك الله، من أرض النعمة والرفاهة، وبلد رسول الله الكريم. لقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد أُشعلَت فيه المصابيح وأُقيمَت التراويح.

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى، وأشعب يصبِّر نفسه. وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل: وأي شيء أقدمك؟ أصلحك الله!

فأجاب أشعب: أقدمني الزمن وتقلباته، ولكن إذا فرغتَ سأخبرك بالأمور على وجهها.

فقال: وتعرِّفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها.

فقال أشعب: نعم.

وكان الخادم واقفًا على مقربة منهما. فنظر إليه أشعب نظرة قاسية.

فدنا منه الغلام وهمس في أذنه معتذرًا: لن أجد حلاقًا يسكت حتى يفرغ!

ومالت الشمس إلى الغروب. ولم يفرغ الحلاق من الكلام، ولم يفرغ مما جاء له، وأخيرًا قال: لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك. فهل ترى أن نبتدئ؟

فأسرع أشعب قائلًا: وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت؟

ونهض فوثب بعيدًا. وما إن استوثق أنه أفلت من يد الحلاق ومَواسيه، حتى صاح في الخادم: علِّق هذا الحلاق من العَقِبَين.

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر. فقال له أشعب: جُعِلْت فداك، سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها، وأنا مشغول في ذلك الوقت، وظننت أنك مشغول بعملك، فأنا أقصها عليك الآن، فاستمع: خرجنا من مكة في المساء فنزلنا بئرًا ذات نخيل في ظهيرة الغد. يا غلام، أوجِع!

فضربه العبد عشَرة أسواط. فقال أشعب: وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار. يا غلام، أوجِع!

فضربه الخادم عشَرة أخرى. وقال أشعب: ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نَجْع وقد أشرفنا على الأصيل. يا غلام، أوجع!

فضربه العبد عشَرة ثالثة. وقال أشعب: وبعدئذٍ ركبنا وسرنا حتى وجدنا …

فصاح الحلاق مقاطعًا: يا سيدي، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ؟

فقال أشعب: إلى المدينة.

– لست تبلغها حتى تقتلني.

فقال أشعب: أتركك على ألا تعود؟

فصاح الحلاق: والله لا أعود أبدًا.

فتركه. وكان المساء قد أقبل. وحضر بنان والكندي … وأبصرا الخادم يحل وثاق الحلاق، فسألا فأخبرهما أشعب الخبر.

فقال الكندي: وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه!

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يُوضع بينهم الخوان وقُدِّمَ الشراب. وحلف أشعب على الحلاق ألا يبرح حتى يحضر معهم العشاء. فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد. وأخذ الكندي يجول بنظره في أنحاء المكان ويُعجَب بالرياش. ولمحه بنان فقال له مبتسمًا: أراك شديد العَجَب!

فقال الكندي: إي والله نعم.

ثم أردف سائلًا: ومتى كان الرحيل؟ قبل أن أُهدي أشعبَ القميص بِكَمْ يوم؟

فلم يفطن بنان وقال: أي قميص؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذٍ أمرًا كان يود أن يسأل الكندي فيه. فأقبل عليه يقول: بالله ألا أخبرتنا: إنا نراك لأول مرة تصنع شيئًا الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة. أخبرنا عن مضيك كل يوم إلى رجل في آخر السوق لتقتضي منه خمسة دراهم دَينًا عليه ... أهو حزم منك؟ لا، إنما الحزم أن يتشدد الإنسان في غير تضييع.

فالتفت الكندي إليه قائلًا: وما هو وجه التضييع؟

فقال أشعب: وجوه التضييع كثيرة؛ فواحدة: أنَّا لا نأمن عليك انتقاض بدنك، وقد خلا ما خلا من سنِّك، وأن تعتلَّ، فتدع التقاضي الكثير بسبب هذا القليل، أو تتشاغل بالبعيد عن القريب، وثانية: أنك إن تجهَد هذا الجهد فلا بد لك من أن تزداد في العشاء، إن كنت ممن يتعشى، أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى. وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم. وبعدُ فإنك تحتاج أن تشقَّ وسَط السوق وعليك ثيابك، والحَمولة تستقبلك، فمن ها هنا نَثْرة ومن ها هنا جذبة، فإذا الثوب قد أَوْدَى، ومن ذلك أن نعلك تُنقَب وتَرِقُّ، وساق سراويلك تتسخ وتَبلَى، ولعلك أن تعثُر في نعلك فتقُدَّها قدًّا، ولعلك تَهرُتها هَرْتًا من كثرة الذَّهاب والإياب في سبيل هذا الدَّيْن الزهيد. منذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء؟

فقال الكندي: منذ يومين من تاريخ الليلة التي أهديت فيها لك القميص.

فأخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول: مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا لك من الخسائر، ولا تجني إذا جنيت إلا خمسة دراهم. ولما كنا نثق دائما بحكمتك في كل تصرفاتك، فقد أعيتنا والله هذه المشكلة، وأحببنا أن نسألك فيها.

فتنحنح الكندي وقال: أما ما ذكرتم من انتقاض البدن، فإن الذي أخاف على بدني منه هو الدعة وقلة الحركة، وهل رأيتم أصح أبدانًا من الحمالين والطوافين. ولربما أقمت في المنزل لبعض الأمر فأُكثر الصعود والنزول خوفًا من قلة الحركة. وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب. وأما ما ذكرتم من الزيادة في الطعام فقد أيقنَتْ نفسي واطمأن قلبي على أنه ليس لنفسي عندي إلا ما لها، وأنها إن حاسبتني أيام التعب حاسبتها أيام الراحة. وأما ما ذكرتم من تَلَقي الحَمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النَّثْر والجذْب فأنا أقطع عُرْض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصَلاتهم، ثم يكون رجوعي على ظَهر السوق. وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فإني من لَدُن خروجي من منزلي إلى أن أقترب من باب صاحبي فإنما نعلي في يدي وسراويلي في كُمِّي … فإذا صرت إليه لبستُهما، فإذا خرجت من عنده خلعتهما، فهما في ذلك اليوم أوْدَع أبدانًا وأحسن حالًا. بقي الآن لكم مما ذكرتم شيء؟

فقالوا جميعًا في عجلة: لا!

فأردف الكندي باسمًا: ها هنا واحدة تفي بجميع ما ذكرتم.

فقالوا جميعًا في لهفة: ما هي؟

– إذا علم المَدِين القريب، ومن لي عليه ألوف الدنانير، شدة مطالبتي للمدين البعيد، ومن ليس لي عليه إلا الدراهم، أتى بحقي كاملًا ولم يُطمع نفسه في مالي. فهذا تدبير يَجمع لي إلى رجوع مالي طولَ راحة بدني. وليس من الحكمة أن أدع شيئًا من دَين يُطمِع في فَضْلَة ما يَبقى على الغرماء.

وسكت. فقالوا بأجمعهم في صيحة إعجاب: لا والله لا سألناك عن مشكلة أبدًا.

وجاء وقت الطعام، ووضع الغلام الخوان، وقدم «مَضيرة» من لحم الجدي واللبن الحامض والتوابل والأبزار، تُثني على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء، في قصعة عظيمة يزل عنها الطرْف بهاء ورُواء، فما أ خذَتْ من المائدة مكانها، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطًا لاعنًا، يسب آكلها وطابخها، فظنه الحاضرون يمزح، فإذا هو جادٌّ في الكلام، وإذا هو يتنحى بعيدًا تنحي السليم عن الأجرب، فرابهم أمرها وخافوا

أن يمدوا إليها يدًا، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت خلفها عيونهم. وتحلَّب لها فم الكندي وتلمظت لها شفتاه، ولكنه أذعن على مضض، وأقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها، فتنهد وقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها!

وسكت، فصاحوا به: تكلم!

فتردد ثم قال: أخاف لو حدثتكم بها ألَّا آمن من غضبكم وإضاعة وقتكم ... فزاد بذلك رغبتهم في الاستطلاع فقالوا له جميعًا: تحدث!

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: منذ سنوات ثلاث دعاني حلاق من إخواني الحلاقين، ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الأموال، إلى أكلة «مَضيرة». ولزمني ملازمة الظل إلى أن تركت حانوتي وزبائني وأجبته إليها، وقمنا. فجعل طول الطريق يثني على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها في صناعة المضيرة وتأنقها في طبخها، ويقول: يا صاحبي لو رأيتَها والخرقة في وسطها وهي تدور في المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبَّر في ذلك الوجه الجميل، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقني، ومن سعادة المرء أن يُرزق المساعدة من حليلته، ولا سيما إذا كانت من طينته، وهي ابنة عمي لَحًّا؛ مدينتها مدينتي وأَرُومتها أرومتي. ولكنها أوسع مني صدرًا، وأحسن خُلقًا.

ومضى يحدثني بصفات زوجته حتى انتهينا إلى الجهة التي يقيم فيها. فقال: يا صاحبي ترى هذه الجهة، هي أشرف موقع بالمدينة، يتنافس الأخيار في نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم، وإنما المرء بالجار. وداري في وسطها كالنقطة في الدائرة. انظر إلى داري وقل لي كم تقدر ثمنها ... قله تخمينًا.

قلت: الكثير ...

فقال: يا سبحان الله! تقول الكثير فقط؟

وتنهد ثم قال: سبحان من يعلم الأشياء!

وانتهينا إلى باب داره فقال: كم تقدِّر يا صاحبي ما أنفقت على هذا الباب؟ أنفقت والله عليه فوق الطاقة. كيف ترى صنعه وشكله؟ أرأيت بالله نظيره؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيه، وتأمل حسن تعريجه، فكأنما خُطَّ بالبِركار. ثم هذه الحلقة فيه لقد اشتريتها في سوق الطرائف من عُمران الطرائفي بثلاثة دنانير. وكم فيها من النحاس يا صاحبي! فيها ستة أرطال! بالله دَوِّرْها ثم انقرها وأبصرها.

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز. فقال: عمَّركِ الله يا دار ولا خرَّبكَ يا جدار. تأملْ بالله المعارج، وتبينْ دواخلها وخوارجها، وسلني كيف حصَلت عليها، وكم من حيلة احتلت لها. فلقد كان لي جار يُكنى أبا سليمان، يسكن هذه الدار، وله من المال ما لا يسعه الخَزْن. فمات رحمه الله وخلَّف خلْفًا أتلف المال بين الخمر والزمر، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب. ويفوتني شراؤها فأتقطع عليها حسراتٍ إلى يوم الممات، فاحتَلْت حتى أقرضت صاحب الدار ما لا أحتاج إليه، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله تَرِقُّ فسألته أن يجعل داره رهينة لديَّ، ففعل. ثم صبرت عليه إلى أن أفلس وآلت إليَّ الدار بثمن بخس. وأنا بحمد الله محظوظ. وحسبك يا صاحبي أني كنت منذ ليالٍ نائمًا في البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب. فقلت: من الطارق؟ ... فإذا امرأة معها عِقدُ لؤلؤٍ تعرضه للبيع، فأخذته منها أخذة خَلْس، واشتريته بثمن زهيد، وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى. وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظي. والسعادة تنبِط الماء من الحجارة. الله أكبر، لا ينبئك أصدق من نفسك. ثم إني اشتريت هذا الحصير في المناداة وقد أُخرج من دُور آلِ ثَراء، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد. تأملْ بالله دقته ولينه وصنعته ولونه. وإن كنت سمعت بأبي عُمران الحَصِيري، فهو عَمِلَه، وله ابن يخلفه الآن في حانوته، لا يوجد أعلاق الحُصر إلا عنده، فبحياتي لا اشتريتَ الحُصر إلا من دكانه، فالمؤمن ناصح لإخوانه. ونعود إلى حديث المَضيرة فقد حان وقت الظهر ... يا غلام ... الطَّسْت والماء.

فقلت: الله أكبر، ربما قرب الفرج.

وتقدم خادمه. فقال: ترى هذا الغلام؟ إنه رومي الأصل، عراقي النشء. تقدم يا غلام؛ وأَحسِر عن رأسك، وانضُ عن ذراعك، وأقبِل وأدبِر.

ففعل الخادم ذلك. وقال صاحب الدار: بالله سلني من اشتراه؟ اشتراه والله أبو مَعْنٍ من النخاس. يا غلام ضع الطَّسْت وهات الإبريق.

فوضعه الغلام، وأخذه المُضيف وقلَّبه بين يديه وأدار فيه النظر، ثم نقره وقال: انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من الذهب، نحاس الشام وصنعة العراق. تأمل حسنه وسلني متى اشتريته؟ اشتريته والله عام المجاعة. يا غلام ... الإبريق!

فقدمه. وأخذه رب البيت فقلَّبه بين يديه وقال: أنبوبة منه. لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست. يا غلام أرسل الماء، فقد حان وقت الطعام! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، أزرق كعين السِّنَّور، وكأنه لسان الشمعة في صفاء الدمعة. وهذا المنديل سلني عن قصته

... فهو نَسْج جُرجان، وقع إليَّ فاشتريته. فاتخذَت امرأتي بعضه سراويل واتخذْتُ بعضه منديلًا. دخل في سراويلها عشرون ذراعًا. وانتزعتُ انتزاعًا من يدها هذا القَدْر وأسلمتُه إلى المطرِّز حتى صنعه كما تراه وطرَّزه. فادخرتُه للظُّرَّاف من الأضياف أمثالك. يا غلام، الخوان والقِصاع والطعام، فقد كثر الكلام.

فأتى العبد بالخوان، وقلَّبه صاحب البيت، ونقره، وعَجَمَه بأسنانه، وقال: عمَّر الله بغداد، فما أجود متاعها! تأمل بالله هذا الخوان، وانظر إلى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله.

فقلت له: هذا الشكل، فمتى الأكل؟

فقال: الآن ... عجل يا غلام بالأكل، لكن الخوان قوائمه منه.

فقنطت وقلت في نفسي: قد بقي الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف اكترى لها حمَّالًا وفي أي رحًى طُحن وكيف عُجن وخُبز، وبقي الحطب ومتى جُلب وكيف صُفف وجُفف. وبقي الخباز ووصفه والدقيق والخمير وشرحه، بقي البَقْل وكيف قُطف ونُظف، وبقيت المَضيرة كيف اشتُرِيَ لحمُها ووُفِّيَ شحمُها ونُصِبَ قِدرُها ودُقَّتْ أبزارها حتى أُجيدَ طبخُها وعُقِدَ مَرَقُها، وهذا خطب يَطِمُّ. فقمت.

فقال: «أين تريد يا صاحبي؟»

فقلت: «حاجة أقضيها.»

فقال: تريد كنيفًا أحسن من مَصِيف الأمير، ويُزري بمقصورة الوزير، قد سُطِّحَ سقفه وفُرِشَت أرضه بالمرمر، يمشي على أرضه الذباب فيَزلق، وعليه باب من ساجٍ وعاج، مزدوجَين أجمل ازدواج، يتمنى الضيف أن يأكل فيه؟

فقلت له: «كُلْ أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف في الحساب.» وخرجت من الدار وجعلت أعدو، وهو يتبعني ويصيح بي: يا أبا الفرج ... المضيرة!

وظن الصبيان في الطريق أن المضيرة لقب لي، فصاحوا صياحه فضجِرت ورميت أحدهم بحجر، فأصاب الحجر عمامة رجلٍ عابر وغاص في هامته. فأخذت مِن صَفْع الناس بما طاب وخبُث. وضُرِبْت والله حتى نسيت اسمي. ثم حُشرْت إلى الحبس فأقمت عامين في ذلك النحس. وخرجت فنذرت ألا آكل مضيرة طول حياتي. فهل أنا في ذا يا أسيادي وإخواني ظالم؟!

وسكت الحلاق. ونظر إلى الجالسين يَمنة ويَسرة فوجدهم ينفخون ويتلمظون، لا من الجوع، بل من الغيظ. ولم يجدوا كلامًا يقولونه له.

ولم ير أشعب جوابًا يجيب به غير الإشارة إلى العبد والصياح فيه قائلًا: «علِّق هذا الحلاق من العَقِبين، إلى أن نفرغ من العشاء!»

وأرجعوا «المضيرة»، فعادت إليهم بارزة منكمشة كالعجوز الحيزبون، فأكلوها وقد ذهب رُواؤها ومضت لذتها، فجعل الكندي يمضغ ويقول لأشعب: ألم أقل لك: وددت أنك بلغت بهذا الحلاق إلى أن تأتي على نفسه؟

حيلة شيطانية

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أيامًا ينفقان مما عندهما على طَيب الطعام وجيد الشراب، إلى أن أوشك ما جمعاه أن ينضب، ولما شبح الفاقة والجوع يقترب، فحدثتهما النفس أن يصنعا ها هنا ما صنعاه في عرفات، ولكن على نسق آخر، خوفًا من سوء العاقبة. فبعث أشعب إلى الجارية «رشا» فحضرت، وأعد هو وبنان منزلًا في زقاق العطارين يشرف على السوق. وأوصيا الجارية أن تَخطِر بقدِّها المائس أمام المسجد إذا اجتمع الناس لصلاة العصر. فمضت وعلى وجهها خمار أسود تَزهَر من تحته عيناها كأنهما النجوم، فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس في أذنها:

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد؟
قد كان شمَّر للصلاة ثيابه حتى خطرتِ له بباب المسجد
رُدي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه، بحق دين محمد!

فالتفتت، فرأت رجلًا ليس من أهل البلد نظيف الهيئة، وقور الطلعة يُحِد إليها النظر. فقالت له: اتبعني.

فقال لها: «إن شريطتي الحلال.»

فقالت له: قبحك الله، ومن يريدك على حرام؟

فخجل الرجل. وغلبته نفسه على رأيه فتبعها. ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل. وصعِدت الجارية درجة وقالت للرجل: اصعد.

فصعِد ... فقالت له: إن لي وجهًا أحسن من العافية، مع صوت كصوت «ابن سُريج» وترنم «مَعْبد» وتيه «ابن عائشة»، أجمع لك هذا كله في بدنٍ واحدٍ بأشقر سليم.

فقال لها: وما أشقر سليم؟

فقالت: بدينارٍ واحد، يومَك وليلَتك. فإذا أقمتَ جعلتُ الدينار صداقًا وتزويجًا صحيحًا.

فقال الرجل: لك ذلك إذا جُمِعَ لي ما ذكرتِ.

فأجلسته في صدر الدار وخلعت خمارها. ورأى الرجل جمالها، فذهب عقله. وقامت الجارية فقال لها: إلى أين جُعلْتُ فداك!

– ألبس وأتهيأ.

فصاح الرجل: بالله لا تَمَسِّي غُمرًا ولا طِيبًا، فحسبك بدلالك وعطرك.

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه، وذهبت، وجاء الغلام، فحيا الرجل أجمل تحية، وأسرَّ له في أذنه: أأخبرتك شريطتها؟

فقال الرجل: لا والله ... ما شريطتها؟

فقال الخادم: لعلها نسيت تخبرك. هي والله أفتك من «عمرو بن مَعْدِ يكَرِب» وأشجع من «ربيعة بن مُكَدَّم» ولستَ بواصلٍ إليها حتى تَسكَر وتُغلَب على عقلها، فإذا بلغَتْ ذلك الحال ففيها مطمع.

فقال الرجل: ما أهون ذلك وأسهله!

فأردف الخادم: ثم شيء آخر ...

– ما هو؟

– اعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك مجرَّدًا مقبلًا مدبرًا.

فقال الرجل: وهذا أيضًا أفعله.

وتركه الغلام ومضى. وأقبلت الجارية تموج ظُرفًا وتَميس لطفًا فقالت: هلم دينارك!

فأخرج الرجل دينارًا نبذه إليها فصفقت فأجابها العبد. فقالت له: قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلما الساعة.

ومضى قليل، فإذا شيخان خاضبان نبيلان، هما أشعب وبنان، قد أقبلا فصعِدا، فقصت الجارية عليهما القصة، وغمزت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل، فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر. ودعيا الرجل فأقر بالتزويج وأقرت الجارية، ودعا الشاهدان بالبركة، ثم نهضا وخرجا واستحيا الرجل أن يحمِّل المرأة شيئًا من المئونة فأخرج دينارًا آخر دفعه إليها وقال: اجعلي هذا لِطِيبك.

فقالت له: يا أخي ... لست ممن يمس طِيبًا لرجل، إنما أتطيب لنفسي إذا خلوت.

فقال لها: فاجعليه إذن لعشائنا الليلة.

قالت: أما هذا فنعم.

ونهضت فأمرت بإصلاح ما يحتاج إليه. ثم عادت قبل المساء، فدعت بالخوان والنبيذ، فتعشيا وشربا. وأمسكت بالعود واندفعت تغني:

راحوا يصيدون الظباء وإنني لأرى تصيدها عليَّ حراما
أعزز عليَّ بأن أُرَوِّع شِبهَها أو أن تذوق على يدَيَّ حِماما

فكاد الرجل يُجَن سرورًا وطربًا. وقال لها: جُعِلْت فداك، من يغني هذا؟

قالت: اشترك فيه جماعة، هو لمعبد، وتغنى به ابن سُريج وابن عائشة.

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه. ثم غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذي كُتِبَ عليه:

كأني بالمجرَّد قد علَتْه نعال القوم أو خشب السواري

فقال لها: جُعِلْت فداك، ما أفهم هذا البيت؟ ولا أحسبه مما يُتغنى به!

قالت: أنا أول من تغنى به.

فقال: إنما هو بيتٌ عابرٌ لا ثاني له؟

قالت: معه آخر ليس هذا وقته ... هو آخر ما أتغنى به.

فسكت الرجل، وجعل لا ينازعها في شيء إجلالًا لها، إلى أن أذَّنَت العِشاء، فوضعت عودها. فقام فصلى العشاء، وما يدري كم صلى عجلة وشوقًا.

وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول: تأذنين جُعِلْت فداك في الدنو منك!

فقالت: تجرد!

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد، فكاد الرجل يشق ثيابه عجلةً للخروج منها. فتجرد، وقام بين يديها، فقالت له: امض إلى زاوية البيت، وأقبِل وأدبِر، حتى أراك مقبلًا ومدبرًا!

وإذا في زاوية البيت حصير في الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه. وإذا تحته خَرْق إلى السوق. وإذا الرجل يجد نفسه في السوق مجردًا عاريًا كما ولدته أمه، وإذا الشيخان الشاهدان «أشعب وبنان» قد أعدَّا نعالهما على قفاه، واستعانا بأهل السوق، فما

أبقوا فيه عظمًا صحيحًا. وبينما الرجل يُضرب بنعالٍ مخصوفة وأيدٍ مشدودة، إذا صوت تغني به الجارية من فوق البيت:

ولو علم المجرَّد ما أردنا لحاربَنا المجرَّد بالصحاري

فقال الرجل في نفسه: هذا والله وقت هذا البيت.

أمعن أشعب وبنان في هذا السبيل بمثل هذه الأساليب، حتى ضجت الناس وعمت الشكوى. وبلغ الأمر والي المدينة، وكان شديد الورع، صارم الخُلق، عبوس الوجه. فأرسل في طلب هذين المفسدين، وأمر بهما للفور فجُرِّدا من ثيابهما وضُربا ثلاثين سوطًا. وأمر بأموالهما الحرام فضُمت إلى بيت المال.

وتحمل أشعب وبنان الضرب، ولكنهما لم يتحملا كارثة ذَهاب المال، فصاح أشعب يستأذن على الوالي فأذن له. فبكى بين يديه وتباكى وقال: أصلحك الله! أنُجرَّد من ثيابنا ومن مالنا في يومٍ واحد.

فقال له الوالي: يا عدو الله! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك في ليلة واحدة.

ورأى أشعب ألا حيلة له مع هذا الوالي إلا أن يضحكه، فلعله إن ضحك عفا. فجعل يقص عليه طريف النوادر، والوالي في إطراقه وتقطيبه وعبوسه، لا يَعبر وجهَه خيالُ ابتسامة. وسكت أشعب قانطًا.

فرفع الوالي رأسه وقال له: لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك.

فقال أشعب: «قد فعلت.»

فقال له الوالي: «أسمعني ما حفظت من الحديث.»

فتنحنح أشعب ثم قال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «من كان فيه خصلتان كُتِبَ عند الله خالصًا مخلصًا.»

فقال له الوالي: هذا حديث حسن، فما هاتان الخصلتان؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال: نسي نافع واحدة.

فقال الوالي: «والأخرى؟»

فقال أشعب: والأخرى ... نسيتها أنا.

فلم يُجب الوالي ... ولم يزد على أن أمر بأشعب فضُرِبَ ثلاثين أخرى.

في العرس

جعل أشعب وبنان يطوفان في الأسواق متجردين من مالهما وقد أعياهما الجوع وضاقت بهما الحياة. ولم يبق لهما مما سلف غير ذكرى تعاود أشعب في كل ليلة. فيرفع عقيرته صائحًا:

شربنا كئوس السعد حتى كأننا ملوك لهم في كل ناحية وفر
فلما اعتلَتْ شمس النهار رأيتنا تخلى الغنى عنا وعاودَنا الفقر

وأتعبتهما كثرة المشي، فقال بنان: ما لنا نمشي في غير حاجة؟

فقال أشعب: صدقت. والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل رحمهم الله، لقد جاء في بعض نصائحهم الذهبية: «لا تمش إلى موضع لا تمضغ فيه شيئًا.»

فقال بنان: لو عرفنا موضع المضغ …

فأجاب أشعب: لمشينا إليه دهرًا.

وتنهد الرجلان، ومضيا في السير، وإذا الفرج يلوح لهما عن كثَب في هيئة عرس في طرَف المدينة. قد نمَّت أنواره عن عظم شأنه فصاحا معًا صيحة واحدة، وركضا إليه. ولكنهما وجدا دونهما بابًا قد أُرْتِجَ وبوابًا وَقاحًا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ويدفع بيده في صدورهم، فعلما ألا سبيل إلى الدخول إلا بالحيلة. فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرًا.

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر، فعلم أن له ولدًا في اليمن هو أخ للعروس فأخذ في الحال ورقة بيضاء فطواها

وختمها وليس في بطنها شيء، وجعل العنوان «من الأخ إلى العروس» ثم أقبل متدللًا. فقعقع الباب قعقعة شديدة، فقال له البواب: من أنت؟

فقال أشعب: أنا رسول من عند أخي العروس.

ففتح له الباب، وتلقاه صاحب البيت فرحًا قائلًا له: كيف فارقت ولدي؟

فقال أشعب: بأحسن حال، وما أقدر أن أكلمك من الجوع!

فأمر صاحب العرس بالطعام فقُدِّمَ إلى أشعب، فجعل يأكل، ولم يُطِق صاحب الدار انتظارًا فقال: أما معك رسالة؟

فقال أشعب: نعم.

ودفع إليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد ختمها طريًّا، فقال: أرى الطين طريًّا؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام: نعم، وأعجب من هذا أنه ليس في بطن الرسالة ولا حرف واحد، لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئًا.

فنظر إليه صاحب العرس شزرًا، وقال له: أطفيلي أنت؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ: نعم، أصلحك الله!

فقال الرجل: كُلْ، لا هنَّاك الله!

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول. ثم تذكر أن في يده خاتمًا بقي له من أيام العز. فذهب من فوره إلى بقال فرهنه عنده على عشَرة أقداح وجاء إلى باب العرس يصيح: يا بواب افتح لي!

– من أنت؟

– أراك لا تعرفني ... أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح.

ففتح له البواب، فدخل بنان فأكل هو أيضًا وشرب مع القوم، حتى فرغ، فقام وأخذ الأقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه.

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان إنما الذي كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والأعراس، فإن دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير، ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة. إلى أن خطر على بال بنان يومًا خاطر فقال لصاحبه: لا يعرف مكان الولائم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق. فإنك لتراهم منتشرين في كل مكان. ولهم علم بكل شأن. ولعل من بين عيالك من تشرد مثلهم. فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار.

وكان الحق فيما قال، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجري، فأخبرهما أنه مر بباب قوم عندهم وليمة. فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا. وإذا صاحب البيت قد وضع سلَّمًا، فكلما رأى شخصًا لا يعرفه قال له: «اصعد يا أبي.» فصعِد بنان وأشعب وابنه، فوجدوا أنفسهم في غرفة مفروشة. وتوالى الصعود إلى هذه الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليًّا، ثم رُفِعَ السلم، ووُضِعَت الموائد في أسفل الدار، وبقي أشعب ومن معه في العلو ينظرون متحيرين فقال بعضهم: ما مر بنا مثل هذا قط!

فنظر أشعب إلى الحاضرين مليًّا وقال: يا فتيان ما صناعتكم؟

فقالوا: الطفيلية.

فقال لهم: ما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه؟

فأجابوا: ما عندنا فيه حيلة!

فقال لهم: وإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا، تقرون لي أني أعلمكم بالتطفيل؟

فنظروا إليه وقالوا: ومن تكون أنت بالله؟

فقال: أنا أشعب!

فقالوا على الفور: قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا.

فقام أشعب، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون، فصاح به: يا صاحب البيت!

فرفع الرجل رأسه قائلًا: ما لك؟

فقال أشعب: أيهما أحب إليك، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل، أو أرمي بنفسي رأسيًّا من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتمًا؟!

ثم جعل أشعب يجر سراويله، كأنه يريد أن يعدو ويرمي بنفسه ... فجعل صاحب الدار يقول: اصبر، ويلك، لا تفعل!

ثم أَصْعَدَ إليهم خوانًا، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير.

وجعل ابن أشعب يأكل، ثم يشرب، ثم يأكل ... حتى لم يبق شيء يؤكَل فقاموا، وعند ذاك انتحى أشعب بابنه ناحية، ولطمه هامسًا: لو جعلتَ مكان كأس الماء الذي شربتَه لُقيمات!

فأجاب الابن على الفور: إن كأس الماء يوسع محلًّا لِلُّقَم.

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة، ثم صفعه ثانية وقال: لم لم تنبهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان؟

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين الثلاثة عشر يختلفون إلى أشعب، ويجلسون حوله في طرَف من أطراف السوق، يستمعون إلى حديثه ويتلقون نصحه، ولزِمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل، وجعل أحيانًا يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة، وكان يلح عليه إلحاحًا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل. وجاء هذا التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلًا له: انصحني!

فوضع أشعب الطبق في حجره وطفق يأكل ... ثم تنحنح وقال: إذا دخلت عرسًا، فلا تتلفت تلفت المريب، وتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام فلتمض ولا تنظر في عيون الناس، ليظن أهل المرأة أنك من أهل الرجل، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة، فإن كان البواب غليظًا وَقاحًا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال ...

وسكت أشعب واشتغل بالتمر، فقال التلميذ: زدني.

فقال: إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط، وتزود منه زاد من لا يراه أبدًا.

– زدني!

– وإذا دُعيتَ إلى وليمة إن شاء الله، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت، بل استخر الله وكن من السَّبْق وأولَ مَن يوافي، واعلم أنه ليس يجيء في أول الأوقات إلا جِلَّة الناس وسَراتُهم، فقعودك مع مثل هؤلاء فائدة، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور، تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف، وأنت رَيِّح البدن واسع الموضع طيب المكان، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك ويُجِلُّونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور في وجوههم، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم.

وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة، اعلم يا مغفل أنك أول من يغسل يده، والخوان بين يديك، وأول القنينة أنت تشربه، والبقل الجيد يوضع قُدَّامك، وأول من يتبخر أنت، ثم إنك تأكل رءوس القدور، وكل شيء كثير، والقدور مَلْأَى، والماء بارد، والخباز نشيط، ورب المنزل فرح مسرور، وكل شيء من أمرك مستور. أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت فقد عطِبت وهلكت، فإنك تصادف الطعام باردًا وهو فضلات

القدور، والرقاق بقايا عجين، فقد استعملوا الجيد، والماءَ سُخْنًا، وصاحب الوليمة ضجرًا متبرمًا، ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضَعْفَى الجيران ومساكين المكان والقُوَّام، فإذا قال لهم صاحب الدار: «قوموا، سارعوا إلى الخوان» نهضوا مزدحمين فانبسطوا في ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة وألصقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص، يأكلون ميمنة وميسرة وتدور أيديهم على الخوان شرقيًّا وغربيًّا وتسمع لِلُّقَم في حلوقهم معمعة، فإن قُدِّمَ لهم جِداء وحُمْلان فإنما يُقَدَّم الجَدي أضلاعًا بلا لحم، فوقه جلد وحوله «خَسٌّ» و«هِندِبا» كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقي القصب قائمًا. فماذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء؟ إنه يخرج من العرس وما معه من العرس إلا شم الطعام وتمشيش العظام.

وسكت أشعب. فقال صاحبه: زدني.

فقال أشعب: وإذا قمت من المائدة وقد تغديت، فاقعد في وسط الدار يضربك الهواء، وادع بالشراب، فإن أتوك بنبيذ فهو أحب إليَّ، رطلا أو رطلين، ولا تصب فيه ماء، وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد في الصدر، فإن القعود في الصدر قعود مغَنٍّ أو مخرف، وإن كان في البيت فاكهة كثيرة فاجذب منها إليك، إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شيء، ولا تكن أنت الساقي، وكن ذنَبًا ولا تكن رأسًا، وإن كان في المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتَّقِ الله في نفسك ولا تُولَعْ بواحدة منهما والْزم العافية، وإذا دار النبيذ في الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى القوم منك زَلَّة أو كلمة غلط فتخرج وقد انهتك سترك عندهم، فإنك إن خلَطت وولَعت ومزَحت فإنما هو صَفعٌ كله وعداوة بين جيرانك. اشرب خمسة أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تَسكَر، فإن خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك، وإنما شرحت لك كل هذا تفصيلًا رغبة في إسداء النصيحة، فافهم تعلم، وتعلم بأدب، متعك الله بسعة الصدر وطيب الأكل والصبر على المضغ، إنها دعوةٌ مغفول عنها.

وسكت أشعب، وسكت تلميذه، وإذا جماعة من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين فعلم أشعب أنها وليمة، فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه، وصاح أشعب في الجماعة: أين؟

فقالوا: اتبعنا ...

فشمر عن ساقيه وقال لهم: بل اتبعوني أنتم!

فساروا في أثره، ومشى هو على رأسهم، ينظر إلى السماء، ويدعو الله قائلًا: اللهم لا تجعل البواب لكَّازًا في الصدور، دفَّاعًا في الظهور، طرَّاحًا للقلانس، هبْ لنا رأفته وبِشره وسهل لنا إذنه!

وبلغوا بابًا كبيرًا قد رُش الطريق أمامه وكُنِس، فاعتدل أشعب، وانتفخ في ثيابه، وشمخ بأنفه وسار متهاديًا متعاليًا متباطئًا، ودخل غير ناظر إلى البواب، فأفسح له البواب غير مجترئ على اعتراضه، وقد ظن أنه ذو مقام، وتبعه صبيانه وهم يشيرون إليه، وينظرون إلى البواب كأنهم يقولون له: نحن أصحابه وخلانه.

واستجاب الله دعاء أشعب، فيُسِّرَ له الدخول، وما شعر أن قدميه في الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله ... ودُعي بالطعام، وحضرت الموائد، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس، ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم: افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، واشرعوا الأكف، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب!

وشمر عن ساعده، وإذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلًا له: انصحني!

فنظر إليه شزرًا، فليس هذا وقت النصائح، والكلام الساعةَ يفوِّت عليه المنفعة، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه في أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال: انظر إليَّ ولا تخالفني على كل ما أقول!

وجاءوهم بقصعة عليها «سَمِيذان»، فقال أشعب لتلميذه: كل من الأحمر، فإن فيه طعمين: طعم السكَّر، وطعم الزعفران. ولم يدَعْه يأكل غيره.

ثم أتوهم «بالهريسة» فقال أشعب لصبيه: كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثًا.

فأكل التلميذ القدر الذي أمر به، ولم يزد، وجاءوهم «بالزيرباج» الأحمر. فقال أشعب: كل لقمة أو لقمتين.

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال: لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر، وأَولِعْ بهذا الخبز اليابس الذي في القلية!

ثم جاءوهم «بالبَقليَّة» فقال له: كل لقمة أو لقمتين.

ثم أتوهم بالشواء فقال له: لا تأكل منه شيئًا وأبق نفسك، فإنا في كل يومٍ نُصيب الشواء «بدانِق» يقوم مقام هذا ويكفيك.

ثم جاءوهم «بالفالُوذَج» وكان كثيرا شبيها بالصومعة، فقال لتلميذه: إيتِ من تحت حتى ينهار، وكُلْ وأكثر، فإنك لا ترى هذا في كل يوم.

ثم أحضروا لهم «اللَّوْزِينَج» فقال له: أَزْوِجْ وثَلِّثْ، فإن مُتَّ في هذا مُتَّ شهيدًا!

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمَّن مشوي، فهوى عليه وأكل منه اثنتين أو ثلاثًا وقال لصاحبه: كل ولا تُقصِر، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير، فلا تأكل إلا ما له قيمة!

ولبث أشعب وأصحابه على هذه الحال، وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة في ناحية من المكان قد وُضِعَت أمام والي المدينة، ولم يفطن أشعب إلى وجود الوالي، ولكن الوالي فطن إليه، وعرفه، ولكنه كتم ذلك، ومال إلى صاحب البيت وقال له: من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الأخضر!

فقال صاحب الدار: أصلح الله الأمير، هذا رجل يقال له أشعب، يشهد هذه الولائم دُعِيَ أم لم يُدْعَ.

فقال الوالي: إذا أكل جئني به.

وفرغ الناس من الطعام، ورُفِعَت الموائد، فأسرع صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى الوالي، فلما صار بين يديه، قال له الوالي: هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة؟

فوقع أشعب في الحيرة وقال: لا، أصلحك الله!

فقال الوالي: ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يُدْعَ إليه دخل سارقًا وأكل حرامًا؟

فقال أشعب: لا والله ما أكلت إلا حلالًا.

فنظر إليه الوالي دهشًا: كيف ذلك؟

فأجاب أشعب: أليس يقول صاحب الوليمة للخباز: «زد في كل شيء»؟ وإذا أراد أن يطعم مائةً قدَّر لمائة وعشرين وهو يقول: «قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد»؟! فأنا ممن لا يريد.

فابتسم الوالي وأعجبه الجواب وقال لأشعب: لقد اقتصصنا منك فيما مضى، ذلك حق المسلمين، ولكن اليوم سلني حاجتك.

فقال أشعب: أطال الله بقاء الأمير، حاجتي: تكتب لي منشورًا لا يدخل على أحد في هذه الصناعة إلا ويدي عليه مطلقة.

فضحك الوالي وهمس في أذن صاحب الوليمة، ثم أمر لأشعب بهدية، وأمر صاحب الوليمة له أيضًا بهدية، فخرج أشعب بأطباق من كل لون.

ضيف ثقيل

لبث أشعب أيامًا يسير في الأسواق في غير شيء، ينتظر أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة، وهو ينشد ويغني:

كل يوم أدور في عرصة الدا ... ر أشم القُتار شم الذباب
فإذا ما رأيت آثار عرس ... أَو دخانًا أو دعوة الأصحاب
لم أعرِّج دون التقحم لا أرْ ... هَبُ سبًّا أو لَكزة البواب

وطال انتظاره، ووقف على رجل يعمل طبقًا من الخيزُران فقال له: أسألك بالله أن توسعه قليلًا وأن تَزيد فيه طوقًا أو طوقين ... فرفع الخيزُراني رأسه وقال له: وما غرضك من ذلك؟ أتريد أن تشتريه؟

فقال أشعب: لا، ولكن ربما اشتراه شخص يُهدي إليَّ فيه شيئًا ذات يوم.

ثم تركه ومشى. فرأى رجلين يتهامسان ويتسارَّان في طرَف السوق ... فوقف على مقربة منهما ينظر إليهما، وإذا تلميذه قد أقبل يقول له: لقد بحثت عنك في مجلسك في السوق.

فقال له أشعب على عجل: «أوليمة؟»

– لا ... ولكنه الشوق إلى حديثك.

فأشاح أشعب بوجهه عنه، وعاد إلى النظر في وجه الرجلين المتهامسين، حتى افترقا وذهبا. فقال له تلميذه: أتعرفهما؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائبًا مع صاحبه: لا، ولكني ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لي بشيء. وأطرق أشعب لحظة، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه: كأني بك لا تريد أن أَزيدك في النصح؟

فنظر إليه تلميذه: لماذا؟

فقال أشعب متخابثًا: ذلك أني أرى أطباقك قد انقطعت.

فقال الرجل: ليس عندي الآن ما يُهدى.

فقال أشعب: أوَليس عندك ما يؤكل؟

فأجاب الرجل: إذا شئتَ فإن داري دارك. فأنت ليس منك حشمة.

وقاد الرجل أشعب إلى بيته وأنزله ضيفًا عليه. ودخل على امرأته فأوصاها أن تُعِد لأشعب عشاءً طيبًا. وأكل أشعب. ثم نظر في الدار وقال: عجبًا! أرى أنك من استواء الحال على قدرٍ تَحمد الله عليه. فما شأنك وصناعة التطفيل؟

فقال الرجل: لقد عَلِقْتُها ولا طاقة لي بتركها.

فقال أشعب: لو أضفتني عندك أيامًا أنصحك، لما تركتك إلا وقد حَذِقْتَها حِذقًا عظيمًا.

مكث أشعب في دار الرجل أيامًا طويلة حتى ضجِر وضجرت امرأته، فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة: يبقى إلى متى؟

– كيف لنا أن نعلم مقدار مُقامه؟

فقالت المرأة بعد تفكر: أنا أجيئك بالخبر.

فقال زوجها: كيف تستطيعين؟

فقالت: أَلْقِ بيني وبينك شرًّا ونتحاكم إليه وأجاذبه الحديث. ونهضا من ساعتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة، وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له: بالذي يبارك لك في ذَهابك غدًا. أينا أظلم؟

فقال أشعب: والذي يبارك لي في مُقامي عندكم شهرًا، ما أعلم!

فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع في طول المُقام. فسُقِطَ في أيديهما، ولم يعلما ما يصنعان. واغتاظ الرجل وفكر حتى اهتدى إلى حيلة، فقال لامرأته: إذا كان غدًا فإني أقول له: «كم ذراعًا تقفز؟» فأقفز أنا من العتبة إلى الدار، فإذا قفز هو فأغلقي خلفه.

وكان الغد، فأحكما التدبير، وجعل الرجل يحتال في الحديث مع أشعب حتى قال له: كيف قفزك؟

فقال أشعب: جيد.

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى خارج الدار أذرُعًا وقال لأشعب: ثِب!

فنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج، بل إلى داخل الدار ذراعين. فوجم الرجل، وقال لأشعب: عجبًا! أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعًا، وأنت وثبت إلى داخل الباب ذراعين؟!

فقال أشعب من فوره: ذراعين إلى داخلٍ خير من أربعة إلى «برَّا»!

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر، وهرب منه تلاميذه ومريدوه فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موائدهم، فلبث أشعب أيامًا وحيدًا حزينًا لا يجد أنيسًا ولا رفيقًا، ولا يظفر بغداء ولا بعشاء. وخطر على باله صديقه بنان، ولم يدر أين اختفى. فخرج يبحث عنه حتى قنَط من الاهتداء إليه، فقعد في أول السوق يفكر في أمر غده، وإذا ببنان قد أقبل يحمل قوسًا ونُشَّابًا ويجر كلبًا، فما رآه أشعب حتى صاح به: أين كنت أخزاك الله؟!

فقال بنان: في الصيد، خيبك الله!

– الصيد!

– نعم، صيد الطير والظباء. إنه لعمل أجدى عليك من هذا القعود تنتظر ما لا يجيء، قم معي إلى الرزق الحلال، تستمتع بالصيد الشهي واللحم الطري والهواء النقي.

فنظر أشعب إلى ما في يد صاحبه وقال: وأين لك بالقوس والنُّشَّاب؟

– بعت خاتمي واشتريت كل ما ترى.

– وأنا ماذا أصنع؟

– اصنع مثل ما صنعت أنا.

– ليس عندي شيء يباع.

– أوَليس عند امرأتك أو عيالك شيء؟

فنهض أشعب لوقته، وقال لبنان: انتظر ها هنا حتى أعود.

ومشى إلى بيته، وأشعب لا يذكر بيته إلا يوم تضيق به الدنيا، فصادف الكندي بالباب.

فما رآه الكندي حتى خف إليه وعانقه عناق المشتاق وقال له في صوت العتاب: ألَا عُدتني وقد كنت مريضًا؟

فقال أشعب: جُعِلْت فداك، متى مرضت؟

فقال الكندي: بعد أربعين يومًا من تاريخ اليوم الذي أهديتك فيه القميص!

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام في نفسه: بعد أربعين يومًا من تاريخ البعثة بالقميص! أي منذ متى على التحقيق؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطي!

ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندي قائلًا: الحمد لله على كل حال ... إذ رأيتك وقد رد الله إليك العافية.

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والوُد. وحدثته نفسه أن يُفضي إلى الكندي بما جاء له: فجلس إلى جواره وتنحنح وقال: لي إليك حاجة.

فقال الكندي على عجل: ولي إليك أنا أيضًا حاجة.

فقال أشعب واجمًا: وما حاجتك؟

فقال الكندي: لست أذكرها لك حتى تضمن لي قضاءها.

فقال أشعب: نعم.

– حاجتي ألا تسألني هذه الحاجة.

فقال أشعب: إنك لا تدري ما هي.

– بلى. قد دَرَيت.

– فما هي؟

فقال الكندي: هي حاجة، وليس يكون الشيء حاجة إلا وهي تخرج إلى شيء من الكلفة.

فقال أشعب متخابثًا: هذا حق. ولكن ... أنت خير من يتكلف لي. وقد جئتك أسألك أن تسلِّفني وتؤخِّرني.

فقال الكندي: هاتان حاجتان.

فقال أشعب: نعم.

فقال الكندي: وإذا قضيت لك إحداهما؟

فقال أشعب من فوره: رضيت.

فقال الكندي: أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك.

فيئس أشعب منه، ولم ير في الكلام معه غير إنفاق الوقت في غير طائل، فقام يريد الذهاب.

فتفكر الكندي لحظة ثم صاح به: والله لا تنصرف خائبًا.

فوقف أشعب دهشًا. ومضى الكندي يقول: أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتي إخراجه. فهو متى أُلقي في الكيس سكن على اسم الله فلا يُهان ولا يُذل ولا يُزعج. أما إذا

شئت فإني أهدي إليك قربة من عسل الرطب، جاءتني هدية من البصرة، فبعها إن أردت واقض حاجتك!

فعجب أشعب، ولم يصدق أذنه، وأنكر ذلك من مذهب الكندي، ولم يعرف جهة تدبيره، وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإعطاء وهو عَدُوُّه. وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته، وإنه لو أُعْطِيَ أفاعي سِجِسْتان وثعابين مصر وحياتِ الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعًا عليها. فكيف يعطيه هذه الهدية التي جاءته بهذا الكرم؟ وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب. والكندي يتمنع ويتعسر، ثم باح بسره آخر الأمر قائلًا: هذه الهدية التي جاءتني، خسائرها أضعاف مكاسبها، وأخذها عندي من أسباب الإدبار والدمار.

فقال له أشعب: لعل أول خسارة احتمالُ الشكر عليها بِرَدِّ نظيرها.

فقال الكندي: هذا لم يخطر قط على بالٍ.

فقال أشعب: هات إذن ما عندك من الأسباب.

فقال الكندي: أول ذلك كِراء الحمال الذي ينقلها إلى البيت، ثم هي على خطر حتى تصير إلى منزلي، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببًا لطلب العصيدة والأرز، فإن بعتها فرارًا من هذا، صيرتموني شهرة وشُنعة، وإن أنا حبستها ذهبت في العصائد وأشباه العصائد، وجذب ذلك شراء السمن، ثم جذب السمن غيره، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذًا، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفرغ له. فإن وليت ذلك الخادم اسودَّ ثوبها، وغرمنا ثمن الأُشْنان والصابون، وازدادت في الطمع على قدر الزيادة في العمل … فإن تغاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك، وعلم الصديق أو النديم أن عندي نبيذًا دق الباب دق المُدِلِّ، فإن حجبناه فبلاء، وإن أدخلناه فشقاء، إذ لا بد له من دريهمِ لَحم، ومن طَسُّوج نُقل وقيراط رَيحان، ومن أبزارٍ للقِدر وحطب للوقود، وهذا كله غرم، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين، وفارقت إخواني من المصلحين، فإذا صرت كذلك فقد ذهب كسبي من مال غيري وصار غيري يكتسب مني. وأنا لو ابتُليت بأحدهما لم أقم له، فكيف إذا ابتُليت بأن أعطي ولا آخذ؟ أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة.

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها لعياله وحمل النصف الآخر إلى السوق فباعه بما بلغ. وذهب إلى بنان فأخبره الخبر فضحك، وضحكا. ثم نهضا. وقال بنان لصاحبه: هلم نشتري لك قوسًا، فما معك يكفي لشرائها.

فنظر أشعب إلى النقود في كفه وقال: أنا الآن في أمان من الجوع ليلتين أو ثلاثًا أو أربعًا.

فقال بنان: أتضيع رأس المال في طعام ليلتين وتقعد بعد ذلك تتضور؟

فقال أشعب: وهل تريد أن أضيع طعامًا مضمونًا في يدي بطعام ما زال هائمًا في الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد؟

واشتد الخلاف بينهما. واحتال بنان حتى أخذ النقود في يده، فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسرًا إلى البائع فاختار له قوسًا وضعها في يده. فأمسك بها أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها.

فقال للبائع: «كم ثمنها؟»

فقال الرجل: «أقبل ثمنها دينارًا.»

فصاح أشعب: دينار! والله لو أني إذا رميت بها طائرًا في السماء وقع مشويًّا بين رغيفين، ما دفعت فيها دينارًا أبدًا!

فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير، فتدخل بنان في الأمر وقال لصاحبه همسًا: ليس في الثمن غلو. فلقد اشتريت قوسي هذه بأكثر من دينار!

وذكر بنان أن المال معه، فلم ينتظر رأي صديقه وأسرع فأعطى البائع الثمن، وجذب ذراع أشعب، وانصرف به.

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا في الفلوات، وأوغلا في الخلاء ... كلٌّ يحمل قوسه ونُشَّابه وخلفهما الكلب. وعيونهما شائعة بين الأرض والسماء، يبحثان عن الصيد. ومضى النهار وهما في مشي وبحث وكد وانتظار، وإذا الكلب ينبح فجأة وينطلق في أثر شيء مر أمامهما كالبرق، فنظرا فإذا ظبي قد عنَّ لهما ... فوقفا، ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب. وأمسك كل بقوسه، ورمى بنان الظبي فأخطأه، ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب. وهرب الصيد، ومات الكلب، وجلس الصيادان، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة في ثالثهما.

محتال ظريف

طال جلوس الصديقين وإطراقهما، واشتد جوعهما، فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه: قد جربنا صيد الظباء فلنعد إلى صيد الموائد.

ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلًا كثيرًا فقال: أرى قرية قريبة، هلم إليها.

وأمسك بيد بنان، وسارا حتى بلغا القرية، فإذا هما أمام دار قد مات صاحبها، ونساء القرية يلطمن خدودهن، ويضربن صدورهن، ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم، والميت في صحن الدار قد سُخِّنَ ماؤه ليُغسَّل، وخِيطت أثوابه ليُكفَّن. فعلم أشعب وبنان ألا أكل ولا طعام في مثل هذه القرية الليلة. وخطر على بال أشعب خاطر ودفعه الجوع إلى الحيلة، فغمز صاحبه، ثم تركه وتقدم إلى الميت فجس عِرقه وصاح في الناس: يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه، فهو حي، وإنما عرَته بهتة، وأنا أسلمه إليكم مفتوح العينين بعد يومين!

فقال الناس: من أين لك علم ذلك يا هذا؟

فقال أشعب: إن الرجل إذا مات بَرُدَ اسْتُهُ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت أنه حي.

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم في استه، ثم قال بعضهم لبعض: الأمر على ما ذكر لرجل، فافعلوا كما قال.

وتركوا أشعب يصنع ما يريد، فقام إلى الميت فنزع ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم، وألعقه الزيت وأخلى له الدار، وقال للناس: دعوه ولا تروعوه! وإن سمعتم له أنينًا فلا تدخلوا عليه!

وخرج أشعب من دار الميت، وقد شاع الخبر بأن الميت قد رُدت إليه الحياة، فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار، حتى وَرِمَ كيسهما فضة وذهبًا، وامتلأ رحلهما سمنًا وجبنًا وتمرًا. وجهدا في أن ينتهزا فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب،

وأقبل الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد، فقال لهم: هل سمعتم لهذا العليل أنينًا، أو رابتكم منه حركة؟

فقالوا: لا.

فقال لهم: إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه فلم يجئ بعد وقته، دعوه إلى غدٍ، فإذا سمعتم صوته فعرفوني لأحتال في علاجه، وإصلاح ما فسد من مزاجه.

فقالوا: لا تؤخر ذلك عن غد!

فقال: «لا».

وجاء الصباح وانتشر الضوء، فجاءه الرجال والنساء أفواجًا وصاحوا به: نحب أن تشفي المريض، وتدع القال والقيل.

فقال أشعب: قوموا بنا إليه!

وذهب معهم إلى الميت، فأبعد عنه التمائم وقال لهم: أنيموه على وجهه!

فأناموه ... فقال لهم: أقيموه على رجليه!

فأقاموه ... فقال لهم: خلوا عن يديه!

ففعلوا، فسقط الميت رأسيًّا. ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول، ولم يزد على أن همس: إنه حقيقة ميت!

فسقطت على أشعب النعال، ولطمته الأكف، وتناوله القوم بالصفع والضرب، وصار إذا رُفِعَت عنه يد وقعت عليه أخرى، ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت، فانسل أشعب وبنان هاربين حتى أتيا قرية أخرى على شفير واد، قد جار عليها السيل، وأهلها مغتمون محزونون من خشية الغرق، فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبز صديقه في الاحتيال، فنظر إليه وابتسم، ثم صاح في أهل هذه القرية: يا قوم! أنا أكفيكم شر هذا الماء، وأرد عن هذه القرية ضرره، فأطيعوني!

فالتفت الناس إلى بنان في رجاء وقالوا له في الحال: وما أمرك؟

فقال بنان: اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء، وأتوني بجارية جميلة عذراء، وصلوا خلفي ركعتين لله، فإن فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم إلى هذه الصحراء، فإن لم ينثن فدمي عليكم حلال!

فقالوا جميعًا: نفعل.

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة، وزوجوه الجارية، وقام بنان إلى الركعتين يصليهما، وهو يقول: يا قوم! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو في القيام أو في الركوع، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلًا، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة!

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع أضلاع الناس، وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح في سبات، ولم يجرءوا على رفع الرءوس خشية أن يذهب جهدهم في غير طائل، إلى أن جاء وقت السجدة الثانية، فأومأ بنان إلى أشعب، وانسلا، فأخذا طريق الوادي وتركا أهل القرية ساجدين، لا يدري أحد ما صنع الدهر بهم!

مشى أشعب يحمل الزاد والمال، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسناء التي زوجوها منه وجعلوا يضربون في الفلاة على غير هدى، حتى أشرفوا على الهلاك، وإذا هم يسمعون صهيل خيل، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين إلى البصرة، فركبوا معهم، وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا على أنفسهم وعلى الغنيمة، وما كادوا يوغلون في بطن الصحراء، حتى عنَّ لهم فارس، جعل ينظر في القوم إلى أن وقع بصره على أشعب، ورآه وحيدًا منفردًا بين الجماعة، فنزل عن فرسه، وتقدم إليه وقبل قدميه، فنظر إليه أشعب، فوجد وجهًا متهللًا، لفتى أخضر الشارب، ملآن الساعد، قوي العضل، ظريف اللحظ، لطيف الحديث، فقال له: ما لك؟!

فقال الشاب: أنا عبدٌ بعض الملوك همَّ بقتلي، فهمت على وجهي إلى حيث تراني وأنا عندك ومالي مالك.

فقال أشعب: بشرى لك وبك!

ورأت الجماعة ذلك، فغبِطت أشعب على هذا العبد وهنأته، وجعل العبد ينظر فتقتلهم ألحاظه، وينطق فتفتنهم ألفاظه، ثم قال: يا سادة! إن في سفح هذا الجبل عينًا، وقد ركبتم فلاة طويلة، فخذوا من هنالك الماء!

فلَوَوا أعِنَّة الجياد إلى حيث أشار، وبلغوا الجبل وقد صهرت الهاجرة الأبدان، فقال لهم: ألا تقيلون في هذا الظل الرحب، على هذا الماء الزلال؟

فقالوا: أنت وذاك.

فنزل عن فرسه، وحل مِنطقته، فما استتر عنهم إلا بغلالة تنم على بدنه، فما شكُّوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطها، وإلى الخيل فحش لها العشب، وإلى الأمكنة فكنسها ورشها، وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه.

فقال له أشعب: يا فتى! ما ألطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة! كيف أشكر الله على النعمة بك؟!

فقال: ما سترونه مني أكثر، أتعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة؟ فكيف لو رأيتموني في الجد والفروسية، أريكم من حِذقي طرفًا لتزدادوا بي شغفًا؟

فقالوا جميعًا: هات!

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى في السماء سهمًا، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء، وقال: سأريكم نوعًا آخر!

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها، وإلى أكرم جواد من جياد القوم فامتطاه، ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبته في صدره، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره.

فصاح أشعب: ويحك! ما تصنع؟

فقال الفتى، وقد تغير صوته: اسكت يا لكع! فليشد كل منكم يد رفيقه وإلا اختطفت روحه!

فلم يدر القوم ما يصنعون! … فخيلهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة، وهو راكب وهم على أقدامهم، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ورأت الجماعة الجِد والعزم في عين الفتى، فشد بعضهم بعضًا من الخوف، وبقي أشعب وحده لا يجد من يشد يده، فقال له الفتى: اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك، لا أم لك!

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده، حتى جردهم مما يملكون، وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم في كبد الفلاة.

جزِع القوم، فقد فقدوا الزاد، وهم الآن لا يملكون الذهاب ولا الرجوع، ووقعوا في حيرة من أمرهم، فقال قائل إن خير السبل امتطاء خيلهم والإمعان في السير إلى البصرة وهي من موضعهم هذا أقرب البلاد إليهم، فتزودوا من ماء العين ووثبوا إلى أفراسهم، وظلوا سائرين حتى لاحت لهم قرية في طرف من أطراف البصرة، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم، فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره، فنظر إليهم وقال: من أنتم؟

فقالوا: أضياف لم يذوقوا شيئًا يؤكل منذ ليال ثلاث.

فابتسم الرجل وقال: اجلسوا!

وسكت طويلًا، ثم نظر في وجوههم مليًّا، ثم تنهد، ثم ابتسم، ثم تنحنح وقال لهم: ما رأيكم يا فتيان في زبدة متوجة بعجوة خيبر، الواحدة منها تملأ الفم، ويَوْحَل فيها الضِّرس … عليها لبن قد حُلِبَ من نُوق مسمَّنة، أتشتهونها يا فتيان؟

فقالوا جميعًا: إي والله نشتهيها!

فقهقه الشيخ وقال: وعمكم أيضًا يشتهيها.

وصمت لحظة، ثم قال: ما رأيكم يا فتيان في عصيدة من دقيق قد نُخِلَ حتى صار كأنه سُحالة الذهب، وسمن عربي بصري أُنضِجَ حتى قال: «بق بق بق»، على حواشيها رُقاق ملفوف بلحم قد نُعم قطعه، وفُوِّهَ بالأبازير، ومُزِجَ بالبصل، وقُلِيَ في الدُّهن، أفتشتهونها يا فتيان؟

فاشرأب كل منهم إلى وصفه، وتحلَّب ريقهم وتلمَّظوا وتمطَّقوا، وقالوا: إي والله نشتهيها.

فقهقه الشيخ وقال: وعمكم والله لا يبغضها.

وسكت برهة، ثم قال: ما رأيكم يا فتيان في عنزة من نَجْد قد أكلت الشيح والقيصوم والهشيم، حتى وَرِيَ مخها، وكثر شحمها، وطاب لحمها، تُنضَج لكم من غير امتحاش أو إنهاء، وتُقَدَّم إليكم على خوان منضد بالبقل والخبز، فتوضع بينكم تتساقط عرقًا وتتسايل مرقًا، أفتشتهونها يا فتيان؟

فقالوا: إي والله نشتهيها!

فقال الرجل: وعمكم والله يرقص لها!

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم إلى الرجل بالسيف قائلين: ما يكفي ما بنا من عض الجوع، حتى تسخر منا.

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونه ويدعون عليه ... وأسرعوا في الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا، وذهب كلٌّ لشأنه، وأخبرت الجارية زوجها «بنان» أن لها أهلًا في البصرة، يضيفونهما فانطلق بنان إلى أهلها، وتركا أشعب وحده.

مع الخليفة

جلس أشعب على رأس الطريق وحيدًا غريبًا في هذا البلد لا يعرف أحدًا فيه، ولا مال معه ولا زاد، وقد أضر به الجوع، فجعل يتنهد ويقول لنفسه: لعن الله المال الحرام! كلما جمعناه ذهب عنا سريعًا، وعدنا شرًّا مما كنا!

وسمع خلفه جلَبة، فالتفت، فرأى عشرة رجال مجتمعين، فصاح: إنه الفرج.

ونهض نشيطًا، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول في نفسه: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة!

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضي بهم، حتى انتهوا إلى زورق قد أُعِدَّ لهم، فأُدخلوا الزورق، فقال أشعب لنفسه: هي نزهة.

ودخل معهم، وإذا هو يرى الرجال العشرة قد قُيدوا بالحديد، وقُيد هو معهم، وإذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذُكِروا بالاسم لأمير المؤمنين، فأمر أن يُحمَلوا إليه، فجُمِعوا له، ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق قد وصل إلى بغداد، وإذا هو يُساق ضمن العشرة، حتى أُدخلوا على أمير المؤمنين فجعل يدعو بأسمائهم رجلًا رجلًا، فيأمر بضرب رقابهم، حتى استوفى العدد وبقي أشعب، فدهش أمير المؤمنين وقال للمُوكَلين: من هذا؟

فقالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين، غير أنَّا وجدناه مع القوم فجئنا به. فالتفت أمير المؤمنين إلى أشعب قائلًا: ما قصتك ... ويلك؟!

فصاح أشعب: يا أمير المؤمنين امرأتي طالق إن كنت أعرف من أحوال هؤلاء شيئًا ولا مما يدينون الله به، إنما أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة.

فقال أمير المؤمنين: ليس هذا مما ينجيك مني، اضربوا عنقه!

فصاح أشعب: أصلحك الله، إن كنت ولا بد فاعلًا فأُمُر السياف أن يضرب بطني بالسيف فإنه هو الذي ورطني هذه الورطة!

فالتفت أمير المؤمنين إلى رجاله وقال: يؤدَّب.

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض في ثيابه رعبًا، وكان وزير الخليفة قائمًا على رأسه، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامة، وما تمالك أن قال: يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه، وأحدثك حديثًا عجيبًا عن نفسي وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة!

فاشتاق أمير المؤمنين إلى الحديث وقال: قل يا أيها الوزير.

قال الوزير: خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة، فطفت في سكك بغداد، فانتهيت إلى موضع، فشممت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها، فتاقت نفسي إليها، فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟

قال: لرجل من التجار.

قلت: ما اسمه؟

قال: فلان بن فلان.

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل، فرأيت كفًّا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم، فشغلني يا أمير المؤمنين حُسن الكف والمعصم عن رائحة القدور، وبقيت باهتًا ساعة، ثم أدركني ذهني فقلت للخياط: أهو ممن يشرب؟

قال: نعم، وأحسب أن عنده الليلة دعوة، وليس ينادمه إلا تجار عملة مستورون.

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال الخياط: هؤلاء منادموه.

فقلت: ما اسماهما؟ ... وما كُناهما؟

قال: فلان وفلان.

فحركْتُ دابتي وداخلتهما، وقلت لهما: جُعِلْت فداكما، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله.

وسايرتهما حتى بلغا الباب، فأدخلاني وقدماني، فدخلنا، فلما رآني صاحب المنزل لم يشك أني منهما بسبيل، أو قادم قدمت عليهما من موضع، فرحب بي وأجلسني في أفضل مكان، وجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأُتينا بتلك الألوان، فكان طعمها أطيب من ريحها، فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها، وبقي الكف والمعصم كيف أصل إلى صاحبتهما؟

ثم رُفِعَ الطعام، وجاءونا بوَضوء فتوضأنا، وصرنا إلى بيت المنادمة فإذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين. وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل عليَّ بالحديث، والندماء لا يشُكُّون أن ذلك منه على معرفة متقدمة، حتى إذا شربنا أقداحًا، خرجت علينا جارية كأنها بان، تتثنى كالخيزران، فأقبلَتْ فسلمَتْ غير خجلة، وثُنِيَت لها وسادة فجلست، وأُتِيَ بالعود فوُضِعَ في حجرها، فجسَّته فاستبَنْتُ في جسِّها حِذقَها، ثم اندفعت تغني:

توهَّمَها طرْفي فأصبح خدُّها وفيه مكانَ الوهم من نظري أثرُ
وصافَحَها كفي فآلَمَ كفَّها فمِن مَسِّ كفي في أناملها عَقْر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها، ثم اندفعَتْ تغني:

أشرت إليها: هل عرفتِ مودتي؟ فردت بطرْف العين: إني على العهد
فحِدْتُ عن الإظهار عمدًا لسرها وحادت عن الإظهار أيضًا على عمد

فصِحْتُ: «يا سلام!» ... وجاءني من الطرب ما لا أملك نفسي معه، ثم اندفعَتْ فغنت الثالث:

أليس عجيبًا أن بيتًا يضمني وإياك لا نخلو ولا نتكلم؟
سوى أ عينٍ تشكو الهوى بجفونها وتقطيع أنفاسٍ على النار تُضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكف يسلِّم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها لمعنى الشعر، وأنها لم تخرج عن الفن الذي ابتدأت به، فقلت: «بقي عليك يا جارية ...» فضربت بعودها الأرض وقالت: «متى كنتم تُحضرون مجالسكم البُغَضاء!» فندمْتُ على ما كان مني، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لي، فقلت: «أما عندكم عود غير هذا؟» قالوا: «بلى»، فأحضروا لي عودًا فأصلحت من شأنه، ثم غنيت:

ما للمنازل لا يُجِبن حزينا أصَمِمْن أم قدُم المدى فبَلِينا
راحوا العشية رَوحة منكورة إن مُتْنَ مُتْنا أو حَيِين حَيِينا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكَبَّت على رجلي تقبلها وقالت: معذرة إليك، فوالله ما سمعت أحدًا يغني هذا الصوت غناءك!

وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب، فشربوا بالكاسات والطاسات.

ثم اندفعت أغني:

أبى الله أن تمسي ولا تذكرينني وقد سفحَتْ عيناي من ذكرك الدما
فرُدِّي مصاب القلب أنت قتلته ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتي لها عسل مني وتبذل علقما

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا، ثم اندفعت أغني الثالث:

هذا محبك مطوي على كمَده حرَّى مدامعه تجري على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته مما جنى ويدٌ أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح: هذا هو الغناء والله يا سيدي، لا ما كنا فيه!

وسكر القوم، وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه.

فلما شربنا أقداحًا قال: يا هذا، ذهب ما مضى من أيامي ضياعًا إذ كنت لا أعرفك، فمن أنت يا مولاي؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر، فقام وقبل رأسي وقال: وأنا أعجب يا سيدي أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك، وأنَّى لي أن أجالس رجال الخلفاء ولا أشعر!

ثم سألني عن قصتي فأخبرته، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ... فقال للجارية: قومي فقولي لفلانة تنزل.

ثم لم يزل يُنزِل لي جواريَه واحدة بعد أخرى، وأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول: ليست هي.

حتى قال: والله ما بقي غير زوجتي وأختي، ووالله لأنزلنهما إليك.

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت: جُعِلْت فداك، ابدأ بالأخت قبل الزوجة، فعساها هي!

فبرزت، فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هي هذه!

فأمر غلمانه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جِلة جيرانه، فأقبلوا بهم، وأمر ببَدْرَتين فيهما عشرون ألف درهم، فقال للمشايخ: هذه أختي فلانة أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي الوزير، وأمهرتها عنه عشرين ألفًا.

ثم دفع إليها البَدْرة، وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم: «انصرفوا.»

ثم قال لي: «يا سيدي، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك؟»

فاحتشمني ما رأيت من كرمه، فقلت: بل أحملها إلى منزلي.

قال: «ما شئت.»

فحملتها إلى منزلي، فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا!

عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره، ولتطفيله الظريف تلك الليلة، فأمر بإحضار أشعب الطفيلي، فجاء أشعب يتعثر خوفًا، فابتدره الخليفة قائلًا: هل لك في «ثريدة» مغمورة بالزبد، مشققة باللحم، تفوح بروائح الأبازير؟

فقال أشعب: وأُضرَب كم؟

فكتم أمير المؤمنين ضحكة وقال: بل تأكلها من غير ضرب.

فنظر أشعب إلى الخليفة مليًّا ثم قال: هذا ما لا يكون، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة؟

فضحك الخليفة، وضحك الوزير، ثم التفت الخليفة إلى أشعب قائلًا: قد علمتُ أنك ذو بصر بالطعام، فما تقول في «اللَّوْزِينَج» و«الفالُوذَج» ... أيهما أطيب؟

فأجاب أشعب: يا أمير المؤمنين، لا أقضي على غائب.

فأمر الخليفة، فأُحضرت مائدة عليها هذان اللونان، وقال الوزير: اقض بينهما الآن.

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان، وجعل يأكل من «الفالوذج» ساعة، ومن «اللوزينج» ساعة وهو ساكت لا ينبس بحرف، وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراد، فقال الخليفة: قل ... أيهما أطيب؟

وقال الوزير: اقض لأحدهما.

فتردد أشعب وحار بين اللونين، ثم عاد فأخذ من هذا لقمة ومن ذاك لقمة، وقال: يا أمير المؤمنين، كلما أردت أن أقضي لأحدهما أدلى الآخر بحجته.

فضحك الخليفة واستظرفه، وقال له: تَشَهَّ عليَّ ... أي لون تريد؟

فاطمأن أشعب وقال مترنمًا:

ألا ليت خبزًا قد تسربل رائبًا وخيلًا من البرْنِيِّ فرسانها الزبد

فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى، وجعل ينظر إليه وهو يأكل حتى فرغ، فقال له: شبعت؟

فقال أشعب: نعم، أطال الله بقاء أمير المؤمنين.

وتأمل الخليفة ثياب أشعب فلم تَرُقْه، وقال له: لست أرى عليك كسوة رائعة!

فلم يجد أشعب ما يقول، ثم تفكر وقال: كانت عليَّ أصلحك الله ثياب نظيفة، غير أني قبل أن يأتوا بي إلى أمير المؤمنين كانت قد أخذتني إغفاءة، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل.

فقال الخليفة دهِشًا: وكيف ذلك؟

فقال أشعب: رأيت أني أحمل بَدْرة من ذهب، فمن شدة ثقلها عليَّ كنت أسلَح في ثيابي، ثم انتبهت، فإذا أنا بالسَّلْح ... ولا بدرة.

فضحك أمير المؤمنين حتى استند إلى الوسادة وقال: نحقق لك النصف الآخر، ولكن أخبرني قبل ذلك، ممن أنت؟

فقال أشعب: من المدينة يا أمير المؤمنين.

فقال الخليفة: وكيف وجدوك بالبصرة؟

وتذكر أشعب كل ما وقع، فرأى الخير في أن يُوجِز فقال: خرجت من المدينة للصيد فضللت، وإذا أنا في البصرة.

فنظر أمير المؤمنين إليه مليًّا وقال له: وهل صِدْتَ شيئًا؟

فتنحنح أشعب وقال كالمخاطب لنفسه: صدت الكلب.

فضحك الخليفة، وأعجبه حديثه، ولبث يُصغي إليه وإلى نوادره ساعات طويلة، ثم قال له آخر الأمر: سل حاجتك!

فقال أشعب: كلب صيد أصطاد به.

فقال الخليفة متعجبًا ضاحكًا: قد أمرنا لك بكلب تصطاد به.

فقال أشعب: وغلام يقود الكلب.

فقال أمير المؤمنين: قد أمرنا لك بغلام.

فقال أشعب: وخادم تطبخ لنا الصيد.

فقال الخليفة: وأمرنا لك بخادم.

فقال أشعب: ودار نأوي إليها.

فقال الخليفة: أمرنا لك بدار.

فقال أشعب: بقي الآن المعاش.

فقال أمير المؤمنين: قد أقطعناك ألف «جَرِيب» عامرة، وألف «جريب» غامرة.

فقال أشعب: وما الغامرة؟

فقال الخليفة: التي لا تعمر.

فقال أشعب من فوره: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفًا من صحاري نجد وفيافي بني أسد!

فضحك أمير المؤمنين وقال: نجعلها لك إذن كلها عامرة.

فقال أشعب: لم يبق الآن إلا شيئان.

فقال الخليفة: هات.

فقال أشعب: أن تقيم معي في هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها الغناء بالمدينة، يقال لها «رشا»!

– وكيف هي؟

فتنهد أشعب وقال مترنمًا:

كأنها أفرغت في قشر لؤلؤة في كل جارحة منها لها قمر

فقال الخليفة: قد زوجناك منها، وأمهرناها عنك عشرين ألف درهم! ... تلك واحدة، فما الأخرى؟

فقال أشعب: الأخرى أن تسمح لي يا أمير المؤمنين أن أعتزل صناعة التطفيل، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدي، وأن أكتب بذلك عهدًا إلى صديق لي يُدعى بنان ليكون هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعَرِيفهم.

فضحك الخليفة وقال: وذلك أيضًا لك.

ثم دُعِيَ بالكاتب والقرطاس، وقال لأشعب يملي عهده.

فقال أشعب للكاتب: اكتب:

«هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على إحياء سنته واستنابه في حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة، وما يتصل بها من أكنافها، ويجري معها من

سوادها وأطرافها، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللُّقَم، وجودة الهضم، ولما رآه أهلًا له من شدة مكانه في هذه الرفاهية المهمَلة التي فطن لها، والرفاغية المطَّرَحة التي اهتدى إليها، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم، ومناعم الجسوم، متوردًا على من اتسعت موارد ماله، وتفرغت شعب حاله، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره ببدائع الطيبات، آخذًا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف، وضاربًا فيه بسهم الخليط المفاوض، وهذا عهدي إليه، وحجتي عليه، فليكن بأوامره مؤتمِرًا ولرسومه متبِعًا إن شاء الله، وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا جميعًا ونعم الوكيل.»

وسكت أشعب، ونظر فإذا الخليفة ووزيره يتقطعان ضحكًا، وهدأ الخليفة، فقال لأشعب: هل بقيَتْ لك حاجة لم تُقْضَ؟

فقال أشعب: نعم، حاجة أخيرة.

فقال الخليفة: قل.

فقال أشعب: يأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده.

فقال الخليفة: أما هذه فدعها.

فقال أشعب: ما تمنعني شيئًا أحب إليَّ منها!

وأسرع إلى يد أمير المؤمنين فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف، ورفعها إلى فمه، وأشبعها لثمًا وتقبيلًا.

هنـــداوي